

رحلة في بلاد العربية السعيدة

للكاتب الإيطالي الذائع الصيت

سلفاتور أبونتي

عربه من الإيطالية

طه فوزي

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1430هـ-2010

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد – القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ابوتي ،سلفاتور
مملكة الامام يحيى ،رحلة فى بلاد العربية
السعيدة / سلفاتور ابوتى ، عربة من الايطالية : طة فوزى
القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2009
160 ص ، 24 سم
تدمك : 978-977-341-455-9
1-اليمن – تاريخ – العصر الحديث
2- الامام يحيى ، يحيى بن حسين الدين ، 1869-1948
ا- فوزى ، طة (معرب)
ب - العنوان

ديوى: 953,202

رقم الايداع :22507

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

شغفت من عهد بعيد بمطالعة مؤلفات الرحالة وكتب السائحين الأوربيين الذين وفدوا منذ القرون الوسطى حتى العهود الأخيرة على مصر وبلاد الشرق العربي، فقرأت منها الشيء الكثير ولا سيما ما كتبه السائحون الإيطاليون الذين كانوا أول من اتصل من أهل الغرب بالشرقيين من أمثال: شيرياكو دي أنكونا وفريسكوبالدي وروزوليني دي بيزا وبيترو ديلا فالي وجيوفاني بلسوني دي بادوفا وروبيكي بريكيتي والسيدة آني فيفانتي وغيرهم الذين زاروا مصر والشرق الأدنى والذين قصوا علينا في مؤلفاتهم الثمينة كثيرًا من الأخبار الطريفة والأوصاف الممتعة عن بلاد الشرق وآثارها وأهلها من بدو ومن حضر، وذكروا الكثير من عاداتهم وصناعاتهم وطبائعهم، وقد أتيح لي في السنوات الأخيرة على أثر استماعي للمحاضرات الشائقة التي كان يلقيها عن البلاد اليمنية الأستاذ المأسوف عليه المستشرق الإيطالي الكبير نالينو بالجامعة المصرية وفي قسم الثقافة العليا بجزيرة رودس -أن أعني عناية خاصة بمطالعة ما كتبه بعض هؤلاء الرحالة والعلماء عن بلاد العربية السعيدة من أمثال لودفيك دي فارتيما الإيطالي الذي قام برحلته إلى الشرق من عام ١٥٠١ حتى عام ١٥٠٨م والذي كان أول أوروبي وضع دليلًا قيما عن أسفاره في مصر والشام والحجاز واليمن وبلاد فارس والهند وسيلان وملقا. ومن أمثال العالم الأثري آرنو الذي وضع رسالة عن (رحلته إلى مأرب) ورسالة أخرى عن (طائفة الأخدام في اليمن) ونشأتها وعاداتها وطباعها إلى غير ذلك. ومن أمثال (بوتا) الذي وضع مؤلفًا عن رحلته في العربية السعيدة كما طالعت تلك



١

فراديس في الخيال

في اليوم الرابع والعشرين من شهر شعبان من سنة ثلاثة وخمسين وثلاثمائة وألف دخلت الأراضي اليمنية الواقعة تحت سلطة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، وكان أول شيء وقع عليه نظري هو جذع شجرة عوجاء لم تفقدها السنون كل فروعها قد وقفت في منتصف الطريق تمنع المرور وينتهي عندها كل أثر للمسير. ولم تكن العواصف والأعاصير مخطئة في الإبقاء عليها لأنها -وقد كان إلى جانبها ثلة من الجنود من مختلف الأسلحة- كانت حارسة ذلك السد المنيع الذي يرسم الحدود الجنوبية لمملكة اليمين والذي يفرض على السائح الأجنبي قفزة بهلوانية ترجع به إلى ما وراء ستة قرون من الزمان.

وعلى مسافة كيلو مترين اثنين من الطريق كان يبدو للعيان الجمرك اليمني وكان به ما يقرب من الخمسة عشر جنديًا مسلحون كلهم حتى أسنانهم، بينما كانت تبدو من خلال طيات عمائمهم المختلفة الألوان حزم صغيرة ظريفة من أعواد تشبه أعواد الريحان، وكانت وجوههم الزيتوية الجافة تبتسم للغريب الذي يسمح له الإمام بالقيام برحلة إلى صنعاء.

ولا يذهب إلى صنعاء كل من أراد ذلك. ومكة -كما هو معلوم- محرمة على غير المسلمين وكذلك هذه المدينة المقدسة، فهي محكمة السد، منيعة الجانب، لا يدخلها من الأجانب إلا ذو حظ عظيم؛ لأنها تستقبل في أحوال نادرة أحد الأجانب النادرين، وكم رفضت الكثيرين من الراغبين في زيارتها وأبقتهم بقسوة

مريرة بعيدين عن أسوارها الطينية الغبراء.

وإن صعوبة الدخول في مملكة اليمن تجعل السفر إليها من الأمور المحببة المرغوب فيها؛ لأن ثمار الشجرة المحرمة هي أشهى الثمار في كل زمان ومكان، وقد قيل في الأمثال: أحب شيء إلى الإنسان ما منع. واليوم بينما يستطيع كل إنسان أن يذهب أنّى شاء متى شاء، وحيث أصبح كل ركن من أركان المعمورة آهلًا بالسكان معروفًا للجميع. وأخذت صور معالمه ومغانيه بآلات التصوير، وعرضت على لوحات السينما على أيدي الزائرين العديدين، فإن إمكان الدخول في بلد مقفول يعتبر من الميزات الثمينة التي لا تقدر بمال، وعلى الأخص إذا كان هذا البلد من بلاد العرب، التي تجلب لنفس السائح بهجة الاكتشاف المزدوج: اكتشاف المكان واكتشاف الزمان.

ويتساءل الكثيرون عما إذا كانت بلاد العرب هي في الحقيقة جزء من القارة الآسيوية؛ لأن الخليج الذي يفصل شبه الجزيرة عن القارة السوداء لا يزيد اتساعه كثيرًا على ذلك الخليج الذي يفصلها عن بلاد الفرس، كما أن مواصلات البلاد العربية مع الغرب كانت دائمًا أكثر منها مع الشرقي؛ لأنَّ جُلَّ الذين أتوا للاختلاط بالبذور السامية الذين تكوَّن منهم شعب شبه الجزيرة الأول إنما جاءوا من شواطئ البحر الأحمر المقابلة؛ ومع ذلك فإن القارة الآسيوية المعروفة لنا بسيل المدينة القديمة المنهمر الذي أمدَّ العالم بالأنبياء والمحاربين والفلاسفة، والذي وقفتْ مياهه ونضب معينه منذ قرون -لا تزال تعرف بعدم الثقة الغريزية فيها نحو الأجنبي- تلك الخصلة التي هي من خصائص الآسيويين والتي تبدو لنا تحت مختلف الأشكال في كل مكان من بلاد الشرق.

وتضاف إلى الصعوبات السياسية التي يلقاها من يريد زيارة اليمن مصاعب

السفر المادية؛ إذ إن الانتقال فيها لا يمكن أن يتم بدون وسائل شاقة مضنية، وبين مميزات اليمن الفريدة أنه لا يمتلك كيلو مترًا واحدًا من السكك الحديدية، وقد كانت هذه الميزة الفريدة على وشك الضياع في العهد التركي عندما حصلت شركة إفرنسية على امتياز بإنشاء خط سكة حديدية يمتد من الحديدة إلى العاصمة اليمانية؛ ولكن جاءت الحرب العظمى الأوربية الأولى في سنة ١٩١٤ مبكرة وقبل الأوان وأوقفت الأعمال في هذا الخط بمجرد ابتدائها. وأما القضبان التي كانت قد مدت على مسافة قصيرة من الساحل فقد خلعها قطعة بعد أخرى أصحاب (السنابيك) الذين كان يسوؤهم أن يعودوا من الحديدة بعنابر مراكبهم خاوية (ويقال: إن الحكومة الإفرنسية ترسل في كل عام وبدون انقطاع إلى الحكومة اليمانية مذكرة تلح فيها بطلب تعويض عن الخسائر التي تحملتها الشركة صاحبة هذا الامتياز، وأن الإمام يستقبل هذه المذكرات بابتسامة ويودعها ضمن محفوظات الدولة وأضابيرها).

وفضلًا عن ذلك فإن الطرق في اليمن غير متوفرة، وإلى سنوات قليلة كانت البلاد تجهل كل الجهل استعمال العجلات، إذ كانت تستعمل الخيول العربية الكريمة للرؤساء والكبراء، كما كانت تستعمل الجمال والحمير والبغال لنقل الأحمال. ومن المعلوم أنه في البلاد الأقل مدنية في إفريقية بدأت الجمال تفقد بسرعة ما قدر لها كدواب للحمل ولكن بلاد العرب بقيت البلاد الوحيدة التي تكثر فيها القوافل التي تزيد في بهجة مناظرها العظيمة الخلابة.

أمَّا الآن فقد ظهرت هنا أيضًا السيارة ولكنها تبدو كشيء دخيل وتعتبر كألعوبة خفيفة متأرجحة رجراجة غير أمينة، وكان استعمالها سببًا في هياج بعض رؤساء الدين وثورتهم وهاهم أولاء لا يزالون إلى اليوم لا يستطيعون إخفاء كراهيتهم

واستنكارهم عندما يرون أراضي اليمن المقدسة يشوهها ظهور تلك الآلة الجهنمية، على أن معظم السيارات القليلة التي استحضرت لا تزال باقية بدون استعمال أو تسير حتى يصيبها شيء من العطب في المدرجات الصخرية أو على سفوح الجبال ثم تترك بدون إصلاح. وقد حصل أحد (سيوف الإسلام) أي أحد أبناء الإمام على بعض السيارات وأجرها لبعض الأفراد وحذا حذوه بعض الرؤساء الآخرين. ولكن هذه الوسيلة من وسائل النقل المسيطرة على حياة الغرب إنما هي هنا بالنسبة لمن يستعملونها ليست إلا من الأشياء الكمالية التي لا يقصد بها إلا الزخرف وحب الظهور ولا شيء غير ذلك.

أما أعمال البريد في اليمن فإنها بالرغم من بطئها تؤدي وظائفها بمنتهى الدقة والنظام، ويقوم بها (سعاة) يسيرون على أقدامهم مسافات تقدر في بعض الأحيان بالثلاثين أو الأربعين من الكيلومترات، ولا يركبون الجمال والبغال إلا في بعض المناطق فقط.

ومما لا شك فيه أن السيارة سوف تفرض نفسها أيضًا في بلاد العربية السعيدة إنْ عاجلًا أو آجلًا، وكذلك سوف تنشأ هنا في آخر الأمر بعض الطرق التي تظهر عليها تلك اللعب الأوربية قليلة الارتجاج، وسوف تفقد في نظر بعض اليمنيين المتنطعين صفتها الشيطانية، فقد افتتح منذ سنتين للمواصلات بكثير من الجرأة والشجاعة طريق السيارات الذي يبدأ من صنعاء إلى الحديدة، والذي يربط الهضاب الغنية بالسهل والبحر، كما يوجد الآن طريق آخر هو طريق (عدن – تعز).

وبعد إمضاء معاهدة الصداقة التي أُبرمت في شهر فبراير من عام ١٩٣٤ اتفقت الحكومة اليمنية مع السلطات الإنجليزية على ضرورة فتح بلاد اليمن للتجارة والتعامل مع عدن لمصلحة البلدين، وقد أعلن رسميًا إتمام الأعمال في الطريق

الجديد، ويظهر الآن شريانه على خريطة بلاد العرب واضحًا كل الوضوح، على أنه توجد طرق أخرى كثيرة تظهر بشكل عظيم في خرائط إفريقيا وآسيا ولكنها إذا ما بحث عنها على الطبيعة كان من أصعب الأمور العثور عليها، وهذا هو ما دعا السائق (مسعود عوض) الذي له خبرة ومقدرة فريدة على قيادة السيارات في الأراضي اليمنية والذي كلف بنقلي في سيارته المتينة من عدن إلى صنعاء، وما جعله يستصحب معه مساعده (أحمد عبده) الذي كان أول واجباته أن يدلنا على الطريق السوي، وأن يساعدنا عندما يقتضي الحال أو عندما ينقطع أثر الأقدام.

وكان إلى جانب السائق ومساعده الخادم (عبد القادر) أحد أفراد قبيلة الإخباري الذي كان يتكلم الإيطالية بطلاقة لأنه خدم مدة من الزمن أحد قناصل إيطاليا وذهب معه حيث بقي وقتًا طويلًا في مدينة (سيينا) بإيطاليا، وكان يتحدث معي بدون تكليف. أمَّا السيارة فلم تكن لتتسع لكثير من الناس غير من ذكرت لأنها كانت مشحونة بالأمتعة وقطع الغيار التي كان من المحتمل أن تصبح ضرورية، وكان بها أيضًا مقدار كبيرة من المئونة من البنزين والزيت، فضلًا عن الأمتعة التي كانت تشتمل على الحقائب، وعلى كمية عظيمة من الأشياء التي تكاد تكون السياحة في الوقت الحاضر قد نسيتها تمامًا؛ هي ماء للشرب في زمزمية من زمزميات الميدان، وعدة علب من المأكولات المحفوظة، وكان هناك أيضًا كيس من شأنه زيادة الحمل زيادة كبيرة وهو كيس النقود لأنَّ الشعب اليمني ليست له ثقة في قطع الأوراق التي يتعامل بها الناس في البلاد الأخرى كنقود؛ إذ إنه في اليمين كما في بلاد الحبشة يستعمل ريال (ماريا تيريزا) الذي تنحصر قيمته في وزنه وأنه وأيم الحق لعملة تدعو للاطمئنان ولكن حملها ثقيل متعب. وكان في هذا الكيس ألف من الريالات لا يقل وزنها عن الثمانية والعشرين من الكيلو جرامات.

كل أولئك قد صف ونظم بعناية كبيرة في داخل العربة وعلى أطرافها وعلى حمالاتها ورفارفها، وجلس (عبده) فوق صفائح البنزين والحقائب وهو واثق من أنها تحمي رأسه من الاصطدام بسقف العربة، وقد أتم (أحمد) الرحلة وهو جالس فوق الحمالة متحاشيًا بما أوتيه من ثبات عظيم من السقوط في الحقول عند كل هزة عنيفة تهتزها السيارة.

بهذه الحمولة الكبيرة وبهذه الحاشية الفاتنة سافرنا من عدن في الفجر وكان المسلمون الصالحون لا يزالون على شاطئ البحر وأرجلهم مدلاة في المياه حيث يقومون بوضوئهم الديني الجليل، وقد وقفوا كلهم بعد ذلك في صفوف متراصة كأنهم في انتظار القيام باستعراض عظيم. وقد سرنا بسرعة عظيمة تاركين عن يسارنا ذلك المنظر البهيج لتلك الأهرام المصطفة من الملاحات الإيطالية على حافة المستنقع المملوء بالمياه ومضينا قدمًا بين الحدائق الغناء والقفار المكفهرة في بلدة (الشيخ عثمان).

وبعد وقفة قصيرة وقفناها في جمرك سلطنة لحج رأينا أوحالًا وخرقًا وحظائر للجمال ومراقد وأرائك ومقاعد صنعت كلها من أغصان الصفصاف ممتدة على طول الطريق كما شاهدنا وجوهًا تبدو عليها آثار النوم وخناجر دمشقية ونرجيلات فخمة متعددة الألوان والأحجام وبعد كل ذلك مباشرة ها نحن أولاء نأخذ طريقنا ونتجه نحو بلدة (المسامير) مارين بعدة قوافل من الإبل تتفرق عند ظهور السيارة في السهل الرملي المجدب الذي تظهر عليه من وقت لآخر بعض الأعشاب القليلة المبعثرة هنا وهناك ونقابل على سفوح الجبال على حين بغتة واحة (لحج) وإذا بها تضم حقولًا يانعة مملوءة بأشجار المانجو العالية ذات الأوراق الخضراء الكثيفة، وشجيرات الموز الفخمة ذات الرائحة العطرية الفيحاء، وحقول الأعشاب الطيبة

التي انتظمت بين صفوف النخيل. وتضرب هذه المزروعات حلقة خضراء حول تلك المدينة المنعزلة المكونة من بيوت حقيرة بُنيت بالطين والتي تضم أيضًا بعض القصور ذات الزخارف التي تبهر النظر وتسر الخاطر، وبعد أن يتخطى الزائر ميدانًا فسيحًا غير منتظم الشكل كانت تتمرن فيه بعض العساكر بدون حماسة ظاهر على استعمال المتراليوزات يظهر بناء عظيم من طراز لا يمكن وصفه، وليس من السهل تعريفه كله شرفات وكله أعمدة وكرانيش وزخارف من الرخام يبهر النظر، كُتب على واجهته بأحرف عربية واضحة وبخط عريض (قصر السلطان عبد الكريم فضل) وقد وُضعت ورقة يميل لونها للاصفرار ثُبِّتت بثلاثة مسامير قديمة على باب البناء الذي يفتح في سور الحديقة وكُتب عليها أن الدخول ممنوع؛ ولكنَّ الأجانب الذين يتخطون حدود السلطنة بجواز مرور من مقر حكومة عدن يستقبلون بكل ترحيب وإكرام.

وقد قبل سلطان لحج مع الشكر حماية بريطانيا ومعاشًا سنويًا يتقاضاه منها ويعيش عيشة راضية مطمئنة ويحكم بدون قسوة ولا شدة رعاياه المخلصين، كما أنه يحصل بدون هوادة الرسوم الجمركية من القوافل التي تخترق أرض بلاده، وهو يتلطف بتقديم بعض جنوده للمسافرين من ذوي الحيثية والمقام يرافقونهم في عربة قديمة حتى الحدود اليمانية. وقد استعملت السياسة البريطانية منذ عهد بعيد طريقة المرتبات للسلاطين والأمراء والشخصيات الكبيرة ذات النفوذ، وهي طريقة لا بأس بها، ولو أنها لقيت بعض النقد الشديد من بعض الإنجليز الذين يجدون أنها تكلف خزانة الدولة مالًا كثيرًا وتعتبر إسرافًا لا موجب له، وفضلًا عن ذلك فإن إنجلترا قد ناطت منذ عدة سنوات مسألة اكتساب صداقة سكان البلاد العربية وثقتهم بمصلحتين من مصالحها؛ إحداهما: (المكتب العربي) بالقاهرة، وثانيتهما: (المكتب الهندي السياسي) بمدينة دلهي، ويحدث غالبًا أنه عندما يسند المكتب المصري أحد

الأمراء ويدفع له راتبًا يكون المكتب الهندي يسند خصمه ويدفع له راتبًا آخر، وأظهر حادث من هذا النوع تلك المساعدات القيمة التي قدمت بسخاء للحسين ملك الحجاز الأسبق الذي كان المكتب العربي يعضده ويعمل على توحيد كل شبه جزيرة العرب تحت سلطاته، والذي طرح جانبًا وتخلى عن سلطته لابن السعود الذي طالما لفت إليه المكتب الهندي عبثًا أنظاره لندره وحكومتها.

أمَّا سلطان لحج فهو رجل مهذب، طيب القلب، كريم الخلق، جُل همِّه هو تشييد القصور ذات الزخارف المتنوعة والطراز الغريب، وقد شيد قصرًا في عدن في حي (كرانز) اعتاد أن يذهب إليه من آن لآخر في سيارة فخمة يقودها سائق حافي القدمين، والإنجليز يدعونه يفعل ما يشاء، ولا يعارضونه ولا يحتجون على هذا المنظر المنافي للذوق والذي لا يتفق مع جلال السلطنة وهيبة الملك. وسلطنة لحج هي أهم وأشهر جزء في (المحميات).

وبعد لحج بقليل يبتدئ الطريق الجديد الشهير، وفيه تزداد آلام المسافر ومصاعبه؛ فإن آثار الأقدام تختفي بين الجبال للبحث عن منافذ أقل وعورة، وها نحن أولاء نندفع في مجرى السيول ثم نصعد ثانية فوق الصخور حيث ترتفع الأعشاب ذات الفروع الطويلة وترتج السيارة ارتجاجات قوية وتشب بمقدمها وترتفع عن الأرض وهي تزأر زئيرًا عاليًا فوق تلك الطرقات المنكسرة وتخاطر بتخطي بعض القمم الصخرية، ثم لا تلبث أن تنخفض وتزحف في بعض القنوات الكبيرة بين لفائف ومدارج الصخور المتفرقة هنا وهناك ويغلي الماء في خزانها غليانًا شديدًا، ولا يستطيع المسافر بأية حال أن يقطع مسافة تزيد على الخمسة عشر من الكيلو مترات في الساعة وبعد كل مائة متر تقطعها كان يسأل بعضنا بعضًا إذا كنا سنستطيع مواصلة السفر، وعند ذلك تعود بي الذاكرة إلى كلمة الكولونيل الذي رأيته في دار الحماية البريطانية

في عدن والذي قال لي: إنني سأكون أول من يقوم بالسفر في سيارة وقطع المسافة كلها بين عدن وصنعاء؛ ولكن ها قد خابت الظنون وضاع كل أمل في الفخر لأنَّ هذه إنما هي رحلات كان من الخير أن نقوم بها على ظهور الإبل على الطريقة القديمة في قافلة بطيئة أمينة.

وبعد أن نتخطى الحدود اليمنية بقليل ها نحن أولاء نقف لنأخذ ماء من بئر وقفتُ إلى جانبه ثلاث فتيات يملأن منه جرارهن الحمراء الكالحة، وإذ يريننا يضحكن ويخفين عنَّا وجوههنَّ، وكانت كل حركة تبدو منهن تثير في الجو رنينًا معدنيًّا عظيمًا؛ لأنهنَّ كنَّ من رقابهنَّ إلى معاصمهنَّ ومن خصورهنَّ إلى كعوبهنَّ - كلهن أجراس من الحلي والأحجبة والتمائم ... ترى هل هنَّ جميلات؟ فإنهن بعد أن يتحدثن بما فيه الكفاية يدرن وجوههنَّ نحونا فنرى -ويا للعجب- ثلاثة وجوه قد طليت باللون الأصفر وهو لمسحوق اسمه (الهرد) يشبه الزعفران، ولحسن الحظ أننا عندما اقتربنا من المدينة قابلنا نساء أخريات متحجبات؛ وذلك لأن البدويات في البلاد العربية هنَّ وحدهنَّ اللائي لا يخفين وجوههن واللائي يخرجن سافرات في الطرقات، وإذا كان السفور وإلغاء الحجاب معناهما التقدم والمدنية فما عسى يكون ذلك البلد الذي يكون فيه الريف والصحراء، أكثر مدنية من المدن والبنادر؟

ها هي ذي آثار الأقدام تتحسن تدريجيًّا ثم لا تلبث أن تظهر بوضوح وها هو ذا الطريق يستقيم أمامنا (وسوف يكون الإمام جد سعيد وسيسر كل السرور عندما أذكر له أن رجاله عرفوا كيف يمهدون الطريق في بلادهم خيرًا من رجال المحميات) ولكن يجب أن يكون من أندر الأشياء ظهور سيارة واحدة في تلك المنطقة؛ إذ إن الأهالي كانوا يجرون من القرى والدساكر ليتجمعوا في طريقنا، وكذلك كانت الماشية والإبل تجفل خائفة مذعورة وكانت توجد في بعض الوديان

التي اخترقناها مراكز آهلة بالسكان وحقول يانعة خضراء على آن بعض الوديان الأخرى كانت تبدو كأنها الصحاري والقفار حيث لا زرع ولا ضرع؛ على أنها كانت كلها تحميها بعض التحصينات الأولية البسيطة.

وتعطي أشعة الشمس عند الغروب منظرًا بديعًا للأعشاب الكبيرة التي تخلع على أراضي البلاد ثوبًا أنيقًا من البهجة والجمال، وعند أحد المعابر يثير الغبار جرى قطيع من الجمال تجفل خائفة وتقطع شربها، وعند مرورنا بأحد الوديان نجد قطعانًا لا عدَّ لها ولا حصر من القردة تهرب عند رؤيتنا وتصرخ صراخًا يصم الآذان، وتتسلق فوق الجبال وهي تحمل صغارها فوق ظهورها.

وأخيرًا نصل إلى تعز بعد الغروب عندما تختفي الدور في عمق الصخور السمراء وخلف المساجد الناصعة البياض التي تمتص آخر أنوار النهار والتي تبدو مآذنها الرشيقة العالية كأنها معلقة في الفضاء.

***

تعز ... أو تاعز ... أو قل ما شئت! فإن الجغرافيين أنفسهم لا يعرفون حق المعرفة حقيقة اسم هذه المدينة اللطيفة الوادعة التي تبزغ وسط واد من الوديان الفيحاء فوق منحدرات الكتلة الجبلية المسماة (صبر). وتعز لا تتحدث كثيرًا عن نفسها ولا تدعو أحدًا للتحدث عنها خارج حدود البلاد، ولو أنها كانت مدى قرنين ونصف قرن من الزمان حاضرة بلاد اليمن في أيام بني غسان الذين فتحوا مكة في سنة ١٢٣٧ ولا تزال هذه المدينة تحتفظ من ذلك العهد ببهجتها التي تشهد على عظمتها بما فيها من المساجد والقباب، ولأحد هذه المساجد مئذنة عالية لطيفة تميل بعض الميل كأنها برج مدينة (بيزا) الشهير. وكما تشهد على ذلك أيضًا حصونها المقامة فوق المرتفعات كأنها الأكاليل أو التيجان على أنه لم يبق أي فخر عند أبنائها وسكانها

الطيبين الذين هم شعب هادئ وادع يعيش محتبسًا في واديها الضاحك الفياح دون أن يهتم أقل اهتمام بما يجري في أنحاء العالم الأخرى.

وإن ظهور غطاء للرأس ذي شكل أوروبي في طرقات مدينة تعز يعتبر حادثًا لا يخلو من أهمية؛ لأنَّ الأشخاص الذين لمحوني لم يظهروا لأول مرة أقل اهتمام ولكنهم بمجرد أن تكاثر عددهم وأصبحوا عشرة هاهم أولاء يتشجعون ويأخذون في تتبع خطوات الأجنبي، وبعد قليل سرعان ما يتزايد عدد هذا الجمع بالتدريج حتى يصبح جمهورًا غفيرًا، وبهذه الطريقة يتجمع نصف سكان المدينة الذين -بمنتهى اللطف وبدون مضايقة الأجنبي- يأخذون في السير خلفه في رياضاته وتنقلاته، ويأخذون في إبداء إعجابهم مثله بمناظر حوانيت السوق الفتانة كما لو كانوا يرونها للمرة الأولى. وفي هذه الحوانيت تُباع الأحذية والمراكيب والنرجيلات المزركشة والحناء التي يخضب بها النساء اليمنيات أيديهنَّ وأقدامهنَّ، كما تباع برادع الحمير والجمال ذات الألوان الزاهية والبخور المستكاوي والشعير والدخان والمر المكاوي والتبغ وكميات كبيرة من (القشر) الذي هو غلاف حبوب البن الذي يتخذ منه الأهلون شرابًا لذيذًا لا غنى لهم عنه. وإذا ما أسرع الأجنبي الخُطى فإنهم يحتذون حذوه، وإذا ما وقف فجأة يجدهم كلهم من حوله، وغنيٌّ عن البيان أنه لا توجد أية فائدة في هذه العادة الغريبة للأجنبي الذي يدفعه حبُّ الاستطلاع لتقصي الأشكال والعادات والذي يرغب في رؤية كل شيء في أقصر وقت ممكن.

ومما هو أقل سهولة وأعز مثالًا من ذلك -رؤية الأمير القوي الذي يحكم بلاد اليمن الجنوبية لأنه عادة لا يقيم في المدينة؛ إذ جعل مقره فوق مرتفع (دار النصر) حيث يشرف منه على كل جزء من أجزاء مدينة تعز، وللوصول إلى مقره يقتضي الأمر مسيرة ساعة ونصف الساعة على متون البغال، ولكن هل في استطاعة الإنسان

أن يرغب عن معرفة شخصية عظيمة ذات أثر عظيم؟ إن السيد على الوزير هو الأمير الحقيقي الوحيد الموجود في بلاد اليمن؛ لأنَّ غيره من الأمراء ما هم إلا قواد الجيش، وهو منحدر من أسرة من أعرق الأسر في البلاد العربية طالما أمدت شبه الجزيرة بالملوك والزعماء والقادة من عهد بعيد.

أخذت قافلتنا الصغيرة في المسير بعد الفجر بقليل، وكانت ترافقنا في تلك الرحلة الطريفة الممتعة مفرزة من الجند؛ بعضهم راكب والبعض الآخر راجل، ونخرج من المدينة تاركين عن يميننا حي اليهود الحقير، ونلازم الجبل صاعدين في الحوض الجاف لأحد الوديان التي تندرج على جوانبه الحقول الصغيرة التي هي أنموذج للزراعة الوطنية. وفي المناطق المقفرة على سفح التل تنتشر أعشاب كثيرة تبتدي بعدها حقول (القات) الشهيرة.

و(القات) هو شجرة متواضعة ولكنها ذات أهمية عظمى وأثر كبير في حياة اليمن، ومن السهل أن يقع في الخطأ من أراد أن يحكم على هذه البلاد على أساس العوامل السياسية والاقتصادية التي من أهمها ثروة تربة اليمن الطبيعية وشخصية الإمام الفريدة ودسائس الدول الأجنبية -بدون الاهتمام بذلك النبات العجيب (أي القات) الذي يفتح أمام اليمنيين أبواب الفراديس الوهمية، والذي يفرض عليهم قواعد فريدة في وجودها؛ لأن أهالي العربية السعيدة اعتادوا من عدة قرون مضت مضغ أوراقه، ولهذه العادة قصة طريفة؛ فقد لاحظ أحد رعاة الإبل في ذات يوم أن جماله بعد أن أكلت من تلك الأوراق اعترتها نشوة غريبة وأخذت في الترنح والتمدد على الأرض في مرح وانشراح دون أن تشعر بالرغبة في الحركة أو القيام بأي عمل، حتى أن ضربها بالهراوات الغليظة لم يكن يحرك منها ساكنًا أو ليجعلها تقوم من مكانها، وخيل أنها قد أصبحت عديمة الإحساس حتى ولا

بالألم؛ لأنها بقيت في الأرض متمددة كأنها في حلم لذيذ، فدُهش العربيُّ وبقى بُرْهة يفكر في ذلك الأمر الغريب، ولم يلبث أن حذا حذوها وأكل هو أيضًا من ذلك النبات، ومن ذلك الوقت حرص الرعاة على إبعاد إبلهم عن أوراقه وأخذوا هم في استعمالها واستأثروا هم بها دونها، وهكذا عمَّ السرور وانتشر الفرح والحبور في كل القلوب. على أن طعم القات لا يمكن تعريفه، ويقال: إنه عنبري فيه شيء من المرارة، والأهالي يحبونه حبَّ العبادة، وينفقون في سبيل الحصول عليه أكثر مما يصرفونه في طعامهم وشرابهم، ويمضغون أوراقه كل يوم في مختلف ساعات النهار، ويستمتعون بآثاره ومفعوله؛ ولكن التهيج الطبيعي والمخي الذي يحدث من القات يتبعه انحلال وانحطاط. ويقال كذلك: إن الإفراط في تعاطيه يجلب النوم والانقباض وضيق الصدر، ويكون سببًا في الضعف الجنسي قبل الأوان، ويحدث غالبًا لماضغي القات المدمنين عندما يصلون إلى سنِّ الخامسة والثلاثين أو الأربعين أن يصبحوا غير قادرين على إرضاء زوجاتهم.

واليمنيون لا يستطيعون العيش بدون هذا النبات العجيب، وبالطبع ليس كل الذي ينبت في اليمن له نفس القيمة؛ لأن المتفننين في تعاطيه والهواة يفضلون أوراق القات التي تنبت فوق منحدرات جبل (صبر)، ويعتبر (قات) تعز ثروة عظيمة لزارعيه ونعيمًا مقيمًا لتلك الخلائق الماضغة. وقد حدث في الربيع الماضي عندما فتح الإمام يحيى حدود بلاده للتجارة مع عدن أن سافرت قافلة من تعز تحمل كمية عظيمة من القات، ولكن هذه القافلة هُوجمت في سلطنة لحج ونُهبت، وعندما علم بهذا الرزء العظيم اليمنيون المقيمون في عدن تكدروا كدرًا شديدًا ووقعوا في ضيق شديد وألم ممض، ولم يتعزوا عن هذا المصاب حتى عندما رأوا الطائرات البريطانية التي أرسلت لتأديب أهالي القرى التي وقعت فيها الحادثة.

وأمّا المزروعات التي لها شكل الموالح فإنها تنتهي هناك حيث يصبح الجبل صحراء جرداء. وهنا بين كومتين هائلتين من الصخور ينفتح كهف عظيم عجيب يقوم على حراسته عدد كبير من الجنود، هو خزائن الأمير. وعلى قمة هذا التل العجيب الذي ينبت القات والذي يحرس كنوز على بن الوزير، يقوم قصر منيف أبيض كثير التضاريس والتعاريج، له نوافذ كبيرة تزينها مشربيات أنيقة، كما تقف من حول هذا الجبل مبان جريئة من الصخر تتوج قممها أبراج صغيرة من الحجارة السمراء. وفي الليل عندما يحظر على المواطنين ارتقاء هذه المرتفعات يتظاهر الجنود بالقيام بالحراسة عندما يلقون بصيحاتهم الطويلة من كل برج.

أمّا البهو الذي بقينا فيه في انتظار الأمير فلم يكن غير غرفة فسيحة الأرجاء واطئة بيضاء، قد فرش جانبها الخارجي بأبسطة ووسائد من كل لون، وكانت ترى من نوافذها المفتوحة على الفناء -الجند المتجمعة، وبعد إشارة بالبوري يظهر ابن الوزير يسنده من إبطيه رجلان من رجال التشريفات وأصحاب المقامات. ويتمتع ابن الوزير بصحة جيدة ولا يزال مستمرًا في إنجاب الأولاد رغم نضوج سنه، وهو ليس في حاجة ولله الحمد لأن يسنده أحد في تنقلاته؛ ولكن حركة الرجلين كانت لها قيمة تشريفية ولا شيء غير ذلك.

اتجه الأمير نحونا ومدَّ يده بالسلام علينا، وبعد مصافحتنا ابتسم للقائنا فظهرت ثناياه وأسنانه الذهبية، وكان يخفي خلف نظاراته السوداء عينًا مكفوفة؛ لأن الجدري حرمه من إحدى عينيه، كما حرمه أيضًا من تولي عرش اليمن؛ لأن من الشروط اللازم توافرها في المرشح للانتخاب لإمامة اليمن سلامة الجسم.

وكان ابن الوزير يرتدي قميصًا طويلًا أزرق اللون ذا أزرار معدنية مستديرة، يضمه إلى جسمه حزام موشى بالذهب يشد الخنجر المقوس الذي تلتف حول

مقبضه مسبحة من العنبر، ويتدلى على كتفيه شال أبيض أطرافه موشاة بالذهب، ويلبس على رأسه عمامة كبيرة رشق بين طياتها قلم من أقلام الحبر الأمريكانية فبدا كأنه نيشان صغير!

وحديث ابن الوزير لا يخلو من أهمية ومتعة ولذة؛ فهو رجل مثقف واسع الإطلاع له إلمام بكافة المسائل العامة؛ لأنه يطالع باستمرار جرائد مصر وفلسطين والشام، وقد قال لي: إن أوربا قلقة مضطربة وأن ما يحدث في بعض الدول لا يبشر بالخير إلا إذا شاء الله أن يحفظ السلام. وقد تكلم معي عن اليمن وعما يحتويه من ثروة وعن مستقبله، وكان يتحدث بهدوء وثقة، وقال لي: إن اليمن لا يزال يحتفظ ببابه مغلقًا وإذا لم نقل (نعم) لكل من يطلبون إلينا الحضور فلا يجب أن يخطر بالبال أننا قوم متعنتون أو أننا نكره الأجانب أو نحقد على الغرباء، وما ذلك إلا لأن الكثيرين منهم لا يطمئنوننا على النفسية التي يأتون بها إلينا، وغالبًا ما يكونون من الدساسين أو المهربين الخطرين الذين يجب أن نتقي شرَّهم.

وتقع تحت إدارة هذا الأمير كل الأراضي المتاخمة لمحميات عدن البريطانية، وقد نجحت إنجلترا في عام ١٩٠٨ في أن تعقد مع الباب العالي اتفاقية تضمن لها مزايا جغرافية هامة، وقد وجدت هذه الاتفاقية مقاومة دائمة من الإمام الذي يعارض في شرعية الامتيازات التي منحها الترك، وقد كان لهذه المعارضة أشكال مختلفة بعضها دموي كالذي حدث في سنة ١٩٢٨ وانتهى باحتلال (الضالع) وقد تقرر في سنة ١٩٣٤ تعيين لجنة إنجليزية يمنية اجتمعت في شهر أكتوبر من تلك السنة للمرة الأولى في منطقة (ماويه) بين تعز والمسامير؛ ولكن أعمالها لم تتقدم ولم تلبث أن أوقفت اجتماعاتها نظرًا لحلول أعياد شهر رمضان على أن تعود إلى الاجتماع متى شاء الله... وليس هناك ما يوجب العجلة على الأقل من الجانب اليمني؛ إذ إن مدة هذا الاتفاق أربعون عامًا تبقى الحدود في خلالها كما هي الآن ما لم

يتم اتفاق آخر في هذا الشأن.

وقد حدَّثني الأمير عن أشياء كثيرة بينما كان الخدم يحملون صحاف القهوة الحلوة اللذيذة الطعم التي كنا نشربها في فناجين صغيرة متعددة الألوان، وقد أعطاني خطابًا مكتوبًا بأحرف عربية زخرفية لكي أحمله إلى الإمام معنونًا باسم (مولانا أمير المؤمنين حفظه الله). وعندما نخرج من القصر الأبيض نجد حرس على بن الوزير الكثير العدد متجمعًا في مربع، وفي وسطهم الضباط العظام والسياف، وكلهم مدجج بالسلاح والتمائم، كما كانت تتجمع في الأفنية جمهرة من الموظفين، وقد وقف الكتاب من فوق سطح بناء منخفض ينظرون إلينا، وكانت الأبراج العالية ملأى بالعمائم والحراب.

وفي المساء أتوجه لأقوم بزيارة قصيرة واجبة لعامل تعز في مقره، وهو مزخرف بزخارف مدهشة منقطعة النظير، وهو الذي يقابل فيه العامل (وهو كالعمدة في اليمن) ضيوفه. والعامل رجل ظريف، فصيح اللسان، له عيون خبيثة متحدثة سوداء، وله خد منتفخ ولكن لا يخيل إلى الناظر إليه أنه يشكو أو يتألم منه، وقد قدَّم لي بالطبع قهوةً وكوبًا من الشراب بنفسجي اللون لم أضعه على فمي لئلا أنتهك حرمة قوانين الضيافة الشرقية.

وليس العامل هو وحده كل من كان هناك بل كان معه أخواه وزميله المساعد الذي جاء من (شيريام)، كما كان معه أيضًا بعض المعاونين الآخرين، كانت لهم خدود وأشداق متورمة! ترى هل كانوا كلهم مصابين بمرض في أسنانهم؟

....أخيرًا علمت من مضغهم أنهم كانوا يحتفظون في أشداقهم بكمية من أوراق القات!

٢
في مجاهل تهامة

وعندما ننحدر بسيارتنا متجهين شطر السهل والبحر نخترق منطقة من أكثر المناطق جمالًا وأعظمها خصوبة في هذا اليمن الصغير الذي هو بحق (حديقة بلاد العرب). ومما هو مأثور أن الرحالة الساميين الذين هاجروا من بلاد ما بين النهرين للبحث عن أراض جديدة جالوا كثيرًا في صحراء الجزيرة العربية الصخرية الرملية وجاسوا خلالها وأخذوا يضربون فيها شرقًا وغربًا حتى عثروا أخيرًا هنا على أرضهم الموعودة التي فيها حطوا رحالهم وعاشوا فيها عيشة رغدة سعيدة وشيدوا لهم مدنًا قوية مدهشة.

وفي الحق أننا إذا قارنا اليوم المناطق العربية الأخرى باليمن لوجدناها كلها أراض رملية قاحلة فقيرة تستدعي الشفقة وتستأهل الرثاء؛ إذ تشاهد المملكة العربية السعودية بحسرة وألم في السنوات الأخيرة نقصان دخلها من الحج إلى مكة نقصانًا كبيرًا، بينما تواجه حضرموت صعوبات كبيرة في تصدير عقاقيرها التي هي من صنف يقل كثيرًا عن عقاقير بلاد الهند الشرقية، كما أن صيد اللؤلؤ على الشواطئ العربية لا يزال يسبب الكثير من الضحايا البشرية دون أن يؤتي ثروة كبيرة للبلاد.

وإن في الأراضي اليمنية لمناظر نضرة بارعة الجمال، وإذا كانت تهامة التي هي ذلك السهل الذي يبلغ اتساعه نحو الأربعين من الكيلومترات والذي يمتد على طول شاطئ البحر الأحمر -هي أرض قاحلة محترقة فإنَّ المنطقة الجبلية الواسعة والهضاب

الشاسعة التي يتكوّن منها أهم جزء في البلاد يمتاز بمناخ عظيم وثروة تستلفت النظر؛ لأنها تغل كل ما يمكن استغلاله بحيث تستطيع اليمن أن تتسع لإسكان أربعة أمثال سكانها الحاليين.

وهنا في أراضي تعز يقتصر السكان على الاشتغال بالزراعة على طريقتهم القديمة المعهودة في الأراضي التي يمكن ريها بسهولة وبدون أي عناء، والتي تعطي أحيانًا ثلاثة محاصيل في السنة، كما تزرع في الوديان المجاورة الخضر بكثرة جنونية، كما أن النخيل تغمر مناظر الريف الفاتنة، ولكن هنا أيضًا كما في بلاد الشرق يدهش الإنسان كل الدهشة للتعارض والتناقض العجيبين بين ثروة البلاد العظيمة وحالة السكان، وبين حقول الذرة والقمح والشعير العظيمة، وحقول الموز الفخمة اليانعة، ومزروعات البن والقات الزاهرة، وبساتين المانجو والباباز التي تعطي ثمارًا مائية متجاورة الخد في كثرتها ومنقطعة النظير في حلاوتها -وبين القرى الحقيرة التعسة التي بنيت جدرانها من قش وطين.

والطريق عادة إن هو إلا ممشى يكاد يكون مخطوطًا يرتفع أحيانًا وينخفض أحيانًا، وهو يضم في طريقه كل تجويف وكل انحدار، كما يستغرق كل مجرى من مجاري السيول؛ على أن أجمل شطر في الطريق بين تعز ومخا هو ذلك الجزء الذي يقابله المسافر في وادي (فابل) (هكذا) الذي يمتد عدة كيلومترات في ممشى فخم من الخضرة اليانعة؛ لأن أشجار النخيل المغروسة على جانبيه ترسل في الجو أغصانها الخضراء. ولا يفوتني أن أقول: إن الطريق كثيرًا ما يدخل في الوديان ويخترقها حتى لقد كانت المياه تصل إلى منتصف عجلات سيارتنا، ولكن العمق كان متساويًا بفعل السيول، وكان في استطاعتنا أن نسير بسرعة تزيد على أية سرعة سرنا بها في أية نقطة أخرى لو لم تكن قد تجمعت في مجرى ذلك الوادي كل فضلات القرويين، وكانت

السيارة كلما تقدمت إلى الأمام تشتت الجمال والأبقار والحمير والماعز والأغنام التي لا عد لها ولا حصر والتي كانت في قفزاتها غير المنتظمة ترقص رقصات مضحكة بأذيالها الكبيرة المكتنزة بالشحم، وهي مئات ومئات من الماشية تقع فريسة الذعر والخوف من سيارتنا فتقفز أمامها في ذلك النفق الذي لا تنتهي خضرته وهي تنثر المياه في كل الجهات وتثير رذاذه في الهواء.

وتتتابع الوديان وكأني بها تتبارى في إحدى مسابقات الجمال، ثم لا تلبث المزروعات الخضراء أن تأخذ في الاغبرار، وعندما نخرج إلى السهل نجد أمامنا الأرض القاحلة وهي أرض محترقة ذات لون أصفر داكن، وعندما يبتدئ هبوب الخماسين تأخذ الرمال في الالتفاف في الهواء حولنا وتسفع وجوهنا.

هذا وليس في مقدور الرياح التخفيف من الحر الذي يشتد حتى في قلب الشتاء في تهامة، وعند نزولنا من ارتفاع ١٨٠٠ متر من تعز يصبح أول اتصال لنا بالسهل المحرق معذبًا لجسومنا ومحزنًا لنفوسنا، ولا تسمح لنا العاصفة الرملية الهوجاء إلا بأن نرى فنار (مخا) وذلك عندما نصبح على أبواب هذه المدينة الشهيرة.

***

ترى ماذا حدث لمدينة (مخا) الذائعة الصيت؟ فإنها إذا ما شوهدت من بعيد من البحر لا تزال تستطيع أن توهم المسافر بعظمتها؛ لأنها إلى الآن تحتفظ بمنظر مدينة جميلة مزدهرة؛ ولكنه إذا ما اقترب منها وتغلغل في طرقاتها تبدو كأنها أطلال قذرة أو كأنها سلسلة من الخرائب متصلة الحلقات، وأما الحصون المشيدة على شواطئها التي تظهر في الصور القديمة والتي تعطي المدينة منظرًا حربيًا فكلها متهدمة ومشوَّهة، وتظهر من خلال أبراجها العظيمة المستديرة المدافع الحديدية القديمة يعلوها الصدأ، وحتى مساجدها فإنها قد غدت كلها متهدسة متداعية اللهم إلا

القليل منها التي لا تزال مآذنها العالية المنفردة قائمة على أقدامها، وأمَّا بيوتها فما هي إلا صخور فوق صخور.

ولقد كانت (مخا) منذ مائة عام مدينة هامة عظيمة الشأن واسعة الحركة؛ ولكن سرعان ما سلبتها كل من عدن والحديدة جانبًا كبيرًا من تجارتها وحركتها ونشاطها، وهكذا بدأ تدهورها السريع، كما أنه في سنة ١٩١١ أطلقت عليها السفن الحربية الإيطالية قنابلها فدكَّتْ حصونها التي كانت تحتلها الجنود التركية فضلًا عن أنها في أثناء الحرب العظمى في سنة ١٩١٥ تحملت وابلًا من القنابل التي أصابتها بأضرار بالغة. ولقد وجد الملاحون البرتغاليون والإنجليز الذين كانوا أول من تغلغل في البحر الأحمر أن ميناء (مخا) كانت تتركز فيه كل الحركة التجارية في الساحل العربي؛ ولكنها الآن أصبحت لا يدخلها أكثر من الأربعين (سنبوكًا) تأتي إليها في كل شهر لشحن البن والجلود والزبد الذي تحمله إلى ميناء عصب في مستعمرة الأرتيرية. وأمَّا أهل المدينة فيسكنون أكواخًا صغيرة وعششًا بُنيت على هامش الأطلال القديمة إلى جانب حقول النخيل الكبيرة التي تحمي مدينة (مخا) وتقيها غائلة رمال الصحراء وكل ما فيها عدا ذلك ما هو إلا قفر في قفر. وأمَّا المباني الأربعة أو الخمسة التي لا تزال قائمة فيها فإنها تبدو كأشباح في إحدى الجبانات!!

على أن المبنى الوحيد الذي له شكل الأشياء الحية هو (الفنار) ولكن نوره قد انطفأ من أكثر من عشرين عامًا بأمر السلطات اليمنية. ومما يؤثر أن أحد ملوك اليمن الأقدمين واسمه (تبع برهة) قد استحق أن يطلق عليه اسم (رجل الفنارات) لأنه هو الذي وضع أولى الإشارات المنيرة على طول شواطئ بلاده، ولو أنه لا يوجد في الوقت الحاضر أي نور يرشد الملاحين الذين يترددون على الشواطئ التي أصبحت كثيرة المكامن بسبب صخورها الكثيرة وأعماقها البعيدة.

ومن ذلك الوقت أصبح فنار (مخا) ما هو إلا برج لا نفع منه ولا فائدة فيه، ولا تزال الشركة الأجنبية التي شيدته تستبقي فيه أحد الحراس، وهو شيخ يوناني لم يعرف طوال حياته عيشة غير العيشة التي يقضيها في الأبراج المنعزلة التي تضيء طرقات المحيطات والبحار، وهو يحب عزلته هذه كما يحب مهنته، ويقوم على حراسة الفنار بكل عناية والتفات في انتظار إنارته متى سمح له بذلك.

ودار هذا الناسك محفوظة هي الأخرى بعناية، وهي ولو أنها صغيرة إلا أنها ليست غير موفورة الكرامة؛ إذ يوجد في بهوها بيانو جميل يلمع خشبه كأنه المرآة، ولكن لم تحاول أية يد أن تعزف عليه أو أن تسمع أنغامه، وهكذا يظل البيانو القديم بدون صوت كما أمسى الفنار بدون نور.

هذا وقد وقع لي حادث عادي جعلني أبرح (مخا) على عجل؛ فقد كنتُ أنظر من أعلى أحد المباني القليلة الباقية على أقدامها إلى قافلة بطيئة من الجمال المحملة بأكياس البن تنتشر بين طرقات الخرائب الجانبية؛ وإذا بقادم يخبرني بأن هناك خطرًا يتهددني إذا واصلت السفر عن طريق السهل ويطلب إلي العودة إلى عدن، وحقيقة كانت الحكومة اليمنية قد أبدت موافقتها على رحلتي إلى صنعاء، ولكن كان يراد مني أن أنزل في الحديدة، ومنها أستأنف السفر إلى العاصمة، وأن أسلك الطريق الذي يسلكه الأجانب القليلون الذين يسمح لهم بدخول اليمن؛ ولكن لم أكن أعرف ذلك، وقد علمتُ أخيرًا بأن الإمام لما علم بوصولي إلى تعز تلطف بإلغاء أمره الأول وسمح لي باختراق أراضي تهامة؛ ولكنني إلى هذه اللحظة لم أكن أنا ولا سلطات (مخا) على علم بما جرى.

ولقد قررت في الحال أن آخذ في السير إلى الحديدة للوصول إليها في أقرب وقت ممكن، ووافق رجالي كلهم على ذلك؛ ولكن الذي تضايق أكثر من غيره من هذا

الحادث كان هو (عبد القادر) الذي لم يكن ليخطر له ببال أنه من الممكن الإخلال بواجبات الضيافة بإلزام أحد الأجانب الذين سمح لهم بدخول البلاد بضرورة قطع رحلته والعودة من حيث أتى. وقد سرَّه كثيرًا أنني قررت مواصلة السفر بأسرع ما يمكن إلى الحديدة؛ ولكن ها نحن أولاء بمجرد أن نصبح خارج مدينة (مخا) سرعان ما نضل الطريق الذي لم يكن في السهل الساحلي سوى شريط من الرمال اقتلعت منه الأعشاب، وبعد لأي يظهر لنا ثانية فنسير على الجادة مدى بضعة كيلومترات، وفي هذه المرحلة أمكننا دفع السيارة والاندفاع بها بسرعة لكي لا نبقى تحت رحمة مد البحر العالي؛ ولكنا بعد قليل ندخل في الأرض الجرداء وتنغرس سيارتنا بأكملها في الرمال ونحاول عبثًا إخراجها فلا نستطيع إلى ذلك سبيلًا، وعندئذ أتقدم أنا وأحمد نحو القرية التي لمحنا على بعد ثلاثة كيلومترات قمم دورها وأكواخها التي تغطيها بعض أشجار الدوم، وفيها نقابل خمسة عشر رجلًا كلهم أنصاف عُراة يلبسون فوق رءوسهم طرابيش غريبة ويحملون في أيديهم سلات مضفورة، وكانوا في سيرهم يغزلون قطعًا من شباك الصيد كما تغزل النساء الجوارب، وقد ساعدنا هؤلاء الصيادون المهرة بِهِمَّةٍ ونَخْوةٍ على إفراغ السيارة وتخفيفها من الحقائب الثقيلة وعلى إخراجها من الرمال، وهكذا استطعنا مواصلة سفرنا، ولكنا عندما وصلنا إلى (الخوخة) كان الجوُّ قد أظلم وكان الليل قد أرخى سُدوله.

ولقد كان وصولنا إلى (الخوخة) سببًا في اضطراب أهاليها وهياجهم؛ فكانوا يهرعون إلينا من عرائشهم المبنية من الطين، وكانت وجوههم الناحلة المرهقة تبتسم إعجابًا بنا، وقد جرت نحونا أيضًا النساء وكنَّ واضعات خمرهنَّ الحمراء فوق وجوههنَّ، وكذلك الأطفال العراة وفي رقابهم حلقات من الحديد هي تمائم تقيهم شرَّ الجنِّ وشرَّ حاسدٍ إذا حَسَدَ. وكان هؤلاء الصغار يقفزون قفزات هائلة علامة الفرح والمرح والسرور.

وأخيرًا هرع إلينا (العامل) وهو مرتد (فوطة)[١] مخططة، وقد وضع فوق رأسه قطعة من الخرقة ولكنه إذ علم أن هناك في السيارة أحد الأجانب عاد ثانية إلى داره وخرج إلينا بعد قليل مرتديًا حُلَّة رمادية زرقاء وحرامًا أحمر تبرز منه قبضة خنجر مزركشة بالذهب، وقد عرض عليَّ في لطفٍ تمضية الليل في (الخوخة) في داره، ولما رأى إصراري على مواصلة السفر أعطاني أحد جنود الحرس؛ وعندئذ سرنا بعد أن شكرته ومعنا رجلان فوق (رفارف) السيارة -هما أحمد والجندي- وكلاهما كان معينًا لإرشادنا إلى طرق اليمن الصعبة، ولكننا في هذا الظلام الدامس سرعان ما نضل الطريق ونخرج عن الجادة وعندئذ نتجه نحو نور كان ينبعث من بعيد متخطين الكثير من الأحراش والكثبان الرملية حتى نصل إلى قرية مكونة من عدة أكواخ، وقد سأل الجندي الذي لا يعرف السخرية ولا المزاح بعض الأهالي عن طريق السيارات، وها هم الأهالي يرشدوننا إليها ولكننا لا نكاد نقطع بعض الكيلومترات حتى ننحرف من جديد في الأرض الجرداء، وعندما نصل إلى القرية التالية ينادي الجندي جمعًا من الوطنيين ويختار من بينهم أربعة من أقواهم بنية ويكلفهم بالجري على الطريق أمام السيارة، وكان يوجِّه إليهم من آنٍ لآخر بعض كلمات غامضة.

(ترى ماذا كان يقول لهم؟... كان يقول: إنهم إذا لم يطيعوا فإنَّ العامل سوف يرسل إليهم جنوده).

على أن هذا التهديد لم يكن في محله ولم يصدر ما يستوجبه؛ لأنهم كانوا يجرون دون أن يبدو عليهم أي ملل أو أي امتعاض، وكان النور المنبعث من مصابيح السيارة ينير ظهورهم السمراء العارية ذات العضلات التي كان يتصبب منها العرق

---

(١) هذا هو لباس أهل المناطق الساحلية في اليمن؛ وذلك لشدة الحر.

بسبب ما نالهم من الجهد والكلال من جريهم الطويل في تلك الليلة الحارة، وكانوا من وقتٍ لآخر يديرون نحونا وجوههم لينظروا بدهشة طفلية -النور القوي الذي كان يتبعهم، وكانوا يبتسمون فتبدو ثناياهم الشديدة البياض.

وبعد أن قطعنا نحو الاثني عشر من الكيلومترات وصلنا إلى قرية استبدلنا فيها أربعة رجالًا بدلًا من الأربعة الذين كانوا معنا، وسرنا على هذه الحال من قرية إلى قرية -ونحن نضرب في هذه الأرض الجرداء- في أعقاب الرجال الذين كانوا يتجددون في كل قرية حتى دخلنا في منطقة المزروعات المحيطة بمدينة (زبيد) حيث كانت تظهر الطريق بجلاء بين حقول الذرة، وعندئذ استغنينا عن أدلائنا وواصلنا السفر بمفردنا.

وسرعان ما نرى على ضوء المصابيح بُرجين كبيرين قد برزا من حائط منخفض وقف أعلاهما ثلاثة من الجند يلبسون فوق رءوسهم عمائم خضراء، ولما نقترب منهم نسمع منهم صوتًا يسألنا بقوله: من الذي في العربة؟ فيجيبه عبد القادر بخشونة ببعض كلمات لم أفهمها، وسرعان ما يفتح الباب مصراعيه الثقيلين. وعندما أسأله عما قال يقول: (قلت لهم: إنه سيد عظيم).

***

أمَّا مسألة وجود مأوى للغريب في مدينة يمنية فمسألة لا تخلو من المشقة، ولا سيما إذا كان ذلك في الساعة العاشرة مساءً، والفندق هو مؤسسة لا حظَّ لها هناك؛ حيث لا تزال الضيافة نوعًا من البهجة والسرور للأهلين ولا تحتاج إلى الفنادق إلا البلاد التي أطفأت فيها المدينة نور المودة؛ لا البلاد التي يكون فيها المسلم الطيب جدَّ سعيد بأن ينال شرف استقبال مسلم طيب آخر في داره ليغمره بمودته ولطفه.

ولكن ترى ماذا يكون الحال إذا كان هذا الزائر من غير المؤمنين؟ لقد قال لي عبد القادر: إنه ليس أمامنا إلا الذهاب إلى العامل.

ولما أقفل مصراعا الباب الجنوبي لمدينة (زبيد) خلف أكتافنا اجتمع العسكر كلهم حولنا وأخذوا ينظرون إلينا في دهشة على أنوار مصابيحهم الحمراء، وقد حمل كل منهم في يده حزمة صغيرة من أوراق القات أخذ يمضغ فيها في هدوء وطمأنينة، ولكن بماذا كانوا يتمتمون عندما كانوا يقدمون على التكلم؟ كانوا يباغتوننا بكلمة خاطفة صائحين: العامل –ثم يأخذون في الجري أمامنا مسرعين في طرقات (زبيد) الضيقة المقفرة الملتوية، وعندما يصلون إلى دار المواطن الأكبر كانوا يهجمون بجموعهم على السلم وهم يحدثون جلبة صاخبة وضوضاء جهنمية، ثم إنهم بدون أن ينتظروا وصول رب البيت يدخلونني في (المفرج) ويساعدونني على ارتقاء إحدى الأرائك العالية المصنوعة من أعواد الصفصاف والتي يطلق عليها اسم (العنجريب). وكان (المفرج) مفروشًا ببسط فارسية وضعت فوقها وسائد من الحرير صُفَّت على طول الجدران، ثم يجلسون صامتين في شكل نصف دائرة أمامي، وعيونهم متجهة نحوي، وتفتر ثغورهم عن ابتساماتهم كما لو كانوا يريدون أن يفهموني أنهم يكونون جد سعداء لو أتيح لهم القيام لي بأية خدمة؛ ومع ذلك فإني أشعر بشيء من الارتياح والانشراح عندما أرى نهاية هذا الصمت عند وصول العامل.

(والمفرج) هو بهو الدار اليمنية؛ ويتكون في بعض الأحيان من مقصف في منتصف الحديقة، وأحيانًا يكون كما هو هنا غرفة مرتفعة فوق سقف الدار نظيفة طلقة الهواء وباردة بين سطحين تحميها الجدران العالية من النظرات الخبيثة، ويصل مع العامل بعض الخدم فيضع أحدهم فوق المائدة نرجيلة مزركشة مصنوعة من

النحاس الأصفر قد وشيت بزخارف لطيفة من الفضة، وبها خرطوم أحمر من الجلد بالغ الطول مزين بشرائط وخطوط متعددة الألوان، كما وضع (البوري) المصنوع من الصلصال والذي يفتح إلى أعلى وقد ملئ بالدخان المزروع في حضرموت والذي يُصَدَّر من المكلا في كميات كبيرة إلى الشرق الإسلامي، ويضع الخادم بعناية كبيرة فوق التبغ قطعًا موقدة من الفحم. ولكن ترى لماذا يجب أن يتأكد من صلاحية النرجيلة بأخذه بعض أنفاس من الدخان منها قبل تقديمها للضيف الأجنبي؟ ولعل هذا هو ما ألجأني إلى تدخين سجائر عدن الكريهة!!

وعامل (زبيد) رجل يبدو عليه الوقار والوجاهة، وهو ذكي لطيف المعشر، يصبغ لحيته بالحناء ويضع فوق أكتاف أولاده شيلانًا صغيرة غريبة بيضاء فيها نجوم زرقاء، وقد تلطف وعرض عليَّ المبيت في مفرجه؛ ولكن ترى هل يوجد أي اعتراض في أن أخرج فوق السطح سريري السفري وأنام عليه؟

لم يكن هناك ما يمنع ذلك، وكان في استطاعتي أن أفعل ما بدا لي، ولكن ليكن ذلك فيما بعد. وقد فرشت أرضية (المفرج) بالحصير ووضعت فوق الحصير (صينية) من النحاس يبلغ طول قطرها نحو المترين، وقد وضع الخدم فوق الصينية عدة صحون ملأى بالأرز واللحم والبيض والخضر والفاكهة.

ها هو ذا عبد القادر يتدارك الأمر ويعتذر بلباقة عن عدم التروي الذي أقابل به دعوة العامل لي بتناول الطعام معه ومع الموجودين، ولكي يبرر حركتي هذه أخذ يقص الكثير من عوائد أهل الغرب الغريبة، ثم ينتحي بي جانبًا حيث آخذ في تناول طعامي بمفردي بحيث كنت أرى وجوه الآكلين الجالسين حول الصينية الكبيرة والذين كانوا يظهرون ارتياحهم وسرورهم لكي يفهموا ربَّ الدار بأن طعامه سائغ لذيذ، وعندما ينصرفون وآخذ في النوم كان مُواء القطط يقطع عليَّ لذيذ رقادي

الذي انتهى في الصباح الباكر على تغريد الطيور التي اتخذت لها عشوشًا تحت سقف (المفرج).

وعند انبلاج الفجر كانت (زبيد) كلها قد استيقظت، وكان الأهلون قد خرجوا من مساكنهم الواطئة وانتشروا في طرقات السوق المسقوفة بالحصير يبتغون من فضل الله -ترى هل التبكير هو عادة أهل هذه المدينة القديمة العاملة الكادحة التي باركها النبيُّ محمد والتي تحتوي على أحد المعاهد الإسلامية الكبيرة في بلاد العرب؟- في تلك الساعة المبكرة بدأت مئات المطارق الخشبية تدق دقات منتظمة في جانب من المدينة فوق السنادين التي امتدت فوقها الأقمشة الزرقاء المراد صقلها وتلميعها لإدخال البهجة والسرور على نفوس النساء اليمنيات. على أن ثروة (زبيد) ليست وحدها في صنع أقمشتها الثمينة؛ ولكنها أيضًا في حقولها العظيمة اليانعة التي تمتد حولها والتي يرويها في فصل الأمطار أحد الوديان السخية فيكسبها الخصب بما يجلب إليها من كميات كبيرة من الطمي المصلح الذي تجرفه المياه من الأراضي المرتفعة عند اصطدامها بها. وإذا ما خرج الإنسان من المدينة متجهًا نحو الشمال فإنه يسير عدة كيلومترات وسط المزروعات الزاهرة والحقول اليانعة وعندما تبتدئ الأرض القاحلة الجرداء يدرك الإنسان أنه قد بلغ أرض (الزرانيق).

والزرانيق شوافع متمسكون بمذهبهم الشافعي الذي هو أحد المذاهب الإسلامية الأربعة، بينما يتكون معظم أهالي اليمن من (الشيعة) ويطلق عليهم اسم (الزيود) ورئيسهم الأعلى هو الإمام يحيى. والزرانيق لصوص وقُطاع طرق مشهورون ولم يخضعوا للسلطات اليمنية في صنعاء إلا من بضع سنوات. وعندما كانت اليمن ولاية عثمانية كانت بلادهم تتمتع بالاستقلال الذي احتفظت به بعد تحرير اليمن من النير التركي، ولم تفقد هذا الاستقلال إلا في سنة ١٩٢٨ عندما جهز

سيف الإسلام أحمد -أكبر أنجال الإمام يحيى- حملة عسكرية ضدهم في تهامة وانتصر عليهم بعد صراع دام سنتين عندما استسلمت قلعة (بيت الفقيه). ولا تزال تشاهد إلى الآن في السهل الممتد بين زبيد والحديدة بقايا معسكرات الزرانيق، وهي أكواخ فقدت سقوفها التي كانت مصنوعة من القش والتي أخذت تتداعى جدرانها الطينية الصغيرة المستديرة بفعل الأمطار، وهي العلامة الوحيدة الظاهرة والأثر الوحيد الذي تخلف عن المعارك التي لم يمض عليها زمن طويل، ولكن الخلاف المذهبي لا يزال يُبقي الأحقاد كامنة في بعض صدور الفريقين[١]. والزرانيق الملزمون بإرسال عدد من الرهائن إلى صنعاء والحديدة يخيل الآن أنهم كفوا عن السلب والنهب للعودة إلى الاتجار والعمل في الحقول، ورئيسهم هو (الشيخ أحمد الفتيني). ويعيش هذا الزعيم آمنًا مطمئنًا في قريته الساحلية (الطائف) على أنَّ هدوءه هذا فيه طعم التربص والانتظار[٢].

وبيت الفقيه ككل سكانها مدينة حربية. وهذه المدينة التي كانت في زمن ما محطة التجمع والتصدير التي كانت تحمل إليها كل حاصلات اليمن من البن ليس بها الآن منه كميات هامة، ولكن قلعتها هي بناء ضخم ذو جدران عالية، وتقوم فوق جدرانها أبراج مستديرة مرتفعة، ويرى مسجدها الكبير من بعيد بمئذنته البالغة الارتفاع، وليس فيها عدا ذلك سوى بيوت واطئة وأكواخ ولا شيء غير ذلك.

وتقع عاصمة الزرانيق على سفح الجبل، وهي نقطة تقابل لعدة طرق من طرق القوافل، وفي هذه المنطقة تتكسر على الهضبة عدة وديان ذات مزروعات يانعة تعطي محصولات وفيرة. ومن بيت الفقيه إلى الحديدة تنعطف الطريق ثانية نحو البحر في

---

(١) إنه لا يوجد الآن ولا أثر له.

(٢) توفي هذا الشيخ من نحو ست سنوات.

خلال الأراضي الرملية الجرداء حيث يندر وجود القرى، وربما كان هذا هو الجزء الأكثر جذبًا في تهامة كلها الذي تحاول القوافل أن تقطعه بمنتهى السرعة. وتنعكس أسنمة الإبل من بعيد خلف الأحراش الواطئة على الأفق وتسير الواحدة تلو الأخرى على مسافات متساوية ببطء وتتموج كما لو كانت تحاول تمثيل حركة البحر على مسرح أحد الملاهي التمثيلية.

ويثير ضجيج محرك السيارة القافلة كلها فتقف الإبل والحمير والماعز مضطربة في الانتظار، ولكنها عندما تصير السيارة على بعد العشرين قدمًا منها تتفرق وتجري مذعورة في الأرض الجرداء ومن خلفها الرجال، وقد تكون القافلة في بعض الأحيان ذات أهمية إذ قد يكون فوق متون الإبل شيء أثمن بكثير من كيس من البن أو أربعة صفائح من الكيروسين؛ إذ يكون أحد الأغنياء العرب راكبًا فوق بغلة بيضاء ذات بردعة جميلة وهو مسافر مع حريمه، وعند اقتراب السيارة من القافلة يخلع أحد الخدم (فوطته) ويغطي بها رأس البغلة لكي لا تخاف، كما يسرع الخدم الآخرون إلى المحافظة على الإبل، بينما تخفي النساء وجوههنَّ تحت الشيلان المتعددة الألوان.

أمَّا كثبان تهامة الرملية فإنها تثير موجاتها على أسوار الحديدة وتفتح لها طريقًا بين (العرائش) المصنوعة من القش والتي يسكنها حمالو الميناء، وأول تحية تقدمها الحديدة للزائر لا تسره كثيرًا ولكنه بمجرد أن يدخل في المساكن يجد أمامه جبانة فسيحة الأرجاء، ويخيل أن المقابر لا تسبب للعرب الحزن أو الانقباض؛ إذ إنهم شيدوا حولها مساكنهم، كما صفَّت مقاهيهم موائدها على الطريق الموصلة بين المدينة والقبور. وأما الحياة في الحديدة التي تعتبر أظرف وأهم مدن اليمن فإنها تنحصر في طرقاتها المؤدية إلى الميناء الصغير الذي لا يمكن أن تدخله إلا (السنابيك) وفي جمهرة

مختلفة الأشكال بديعة فاتنة من التجار والهجانة وكبار الموظفين ومن الحمالين السود ومن النساء الرشيقات المبرقعات ومن البدويات المحجبات بالخرق -وكل هؤلاء يجولون في كل مكان وفي كل طريق؛ فتبعث مناظرهم السرور والبهجة في النفوس.

وتشرف على ميناء الحديدة أجمل قصور المدينة ذات البوابات المغربية اللطيفة والمشربيات الأنيقة، وقد بنيت كل هذه القصور للموظفين الترك ولسكنى قناصل الدول الأجنبية في العهد الذي كانت البلاد الأخرى تستطيع أن ترسل إلى اليمن ممثِّليها. وقد تهدمت بعض هذه القصور في أثناء الحرب العظمى بفعل القنابل التي أُلقيت على الحديدة ولم ترفع أنقاضها كلها إلى الآن.

وبعد أن نمر بميادين أخرى تليها جبانة أخرى تخرج إلى الأرض الجرداء وعندئذ نرى الطريق الموصل إلى صنعاء يتجه نحو الشمال على طول شاطئ البحر قبل أن ينثني نحو جبال حراز، ولكنا عندما نهمُّ بالخروج من المدينة يقفل الجنود الطريق في وجوهنا؛ إذ يجب على ما يلوح أن نحصل على جواز مرور من الحاكم.

ولكن ترى ما فائدة تصريح الإمام؟

أمّا تصريح الإمام فلا بأس به ولا بد منه؛ إذ بدونه ما كان لي أن أحظى بالتحدث إلى هؤلاء الجنود الظرفاء المخلصين في طريق أية مدينة يمنية. ولكن إذا ما وصل إلى الحديدة الأجنبي الذي يريد مواصلة السفر إلى مدينة الزيديين المقدسة فإنه يتحتم عليه أن يحصل على تصريح من الحاكم بعد موافقة تلغرافية من الملك عليه.

وإذن فما علينا إلا الصبر والاستسلام لنتذوق مباهج الحديدة ومسراتها!

٣

بكره ... إن شاء الله

لا بأس من الإقامة في مدينة الحديدة في قلب الشتاء .... أليس كذلك؟ ولِمَ لا يكون ذلك ودرجة الحرارة فيها لا تنقص أبدًا عن الخمسة والثلاثين؟ وقد يحدث في بعض الأحيان أن يشعر الإنسان بأنه يكاد يختنق من شدة حرها لأنَّ الريح الموسمية لا تثير في الجو عند هبوبها إلا كتلًا متراصة من الهواء اللافح الذي يشوي الوجوه، وفي المساء لا يكون الجو محتملًا إلا في الخلاء وفي خارج المدينة، ولكن إذا ما اقترب الإنسان من دور السكنى فإنه سرعان ما يشعر بالحرارة التي تجمعت طول النهار والتي ليس من اليسير أن تتبدد أو تتفرق بسرعة وهي حرارة شديدة قاسية.

ومن أحد الأفنية يصر أحد الأبواق المزعجة المنكرة الصوت على إذاعة أنغام متقطعة غير منسجمة ولا متجانسة وألحان شاذة ناشزة... ترى ما هذا الذي أسمع؟ ألم يقولوا لنا: إن الآلات الموسيقية مُحَرَّمة في مملكة الإمام كلَّ التحريم؟

نعم إنها مُحَرَّمة وممنوعة منعًا باتًّا؛ اللهم إلا ما كان منها مخصصًا للجيش. ولكن أليس في استطاعة رياسة (الحرس) أن تتجنب هذا الشذوذ في الألحان؟ ليس ذلك شذوذًا في اللحن ولكنها مقطوعات متنوعة جريئة يثبت بها النافخون في الأبواق صلاحيتهم ومقدرتهم وطول أنفاسهم.

على أنه على أثر كل صوت يخرج من ذلك البوق كان يتردد غناء النسوة اللاتي يعملن في فرز حبوب البن. وهؤلاء لسن عربيات صميمات بل هنَّ من سلالة ذلك الجنس الذي ظهر في البلاد اليمنية منذ عهد الغزو الحبشي، وهنَّ يسرن في الطرقات

ويخرجن إلى الأسواق سافرات الوجوه ويرتدين أثوابًا صنعت من أقمشة ذات ألوان زاهية، ويقضين طوال نهارهنَّ مفترشات بلاط بيوت هههههصـ ٣٠ النفيسة التي تحملها القوافل من مكان إنتاجها —والتي يستسيغها العالم بأسره ويتلذذ بشربها يجب أن تمر قبل كل شيء من خلال ماكينات أولية بسيطة ذات صوت عال وضجيج يصم الآذان وتخليصها مما يكون قد علق بها من الغبار والحصى والقشور، ثم بعد ذلك تسلم إلى هؤلاء النسوة اللاتي يأخذن في فرز الحبات واحدة بعد واحدة ويقمن بعملهنَّ هذا في هدوء وسكون وهنَّ يغنين في أثناء ذلك أغانيهنَّ المشجية ليرفهن عن نفوسهنَّ، ولكي لا يشعرن بالسآمة والملل من هذا العمل المرهق، ولكي يستجلبن النعاس إلى جفون أطفالهنَّ الصغار الذين يتمددون فوق كومات البن وهم يكادون يكونون عراة الأجسام.

ويوضع البن بداخل أكياس مزدوجة نسجت من ألياف النخيل هي (تعبئة) مخا التقليدية، ثم تحمل هذه الأكياس إلى الميناء بواسطة حمَّالين يتناول الواحد منهم قطعة من العملة النحاسية عن كل كيس يضعها في فمه ويجري. وفي الميناء ينتظر حمالون آخرون يدخلون في المياه حتى صدورهم وهم يحملون هذه الأكياس ويلقون بها في (السنابيك) وهم في عملهم هذا يغنون أغانيهم ويرددون أهازيجهم المشجية. وواضح أنه إذا فرض الصمت على هؤلاء أو أولئك لما استطاع واحد منهم أن يحرك إصبعًا واحدًا من أصابعه.

وكذلك يغني المتسولون المكفوفون الذين يسيرون في طابور، وكل منهم واضع يده على كتف زميله الذي يسبقه من خلال الطرقات المزدحمة. ويغني أيضًا المجانين الخطرون الذين بسبب انعدام البيمارستانات في اليمن يلتجئون إليها ويحبسون بين جدرانها — يتركون حيث يتسكعون في طرقات (الحديدة) كما يشاءون كذلك ليس

من الأمور الهينة أن يخرج الناس للتجول في طرقات الحديدة دائمًا؛ لأنَّ تاجر الجلود لا يرى مانعًا يمنعه من إشغال مائة متر مربع من أرض الميدان لنشر بضاعته وتجفيفها ثم يبقى إلى جانبها وبيده هراوة طويلة لمطاردة الصقور والغربان التي تجذبها رائحة الدباغة فتأتي جماعات ووحدانًا وترتطم بعضها ببعض وهي تنقض بشراهة على هذه البضاعة الكريهة الرائحة. كما أن تجار الحبوب ومصدريها يمدون الحصير على أرض الطريق ويأخذون في تعبئة الذرة والبن والسمسم والحناء التي يصدرونها إلى الخارج بواسطة رجالهم؛ أمَّا من أقام حفلة من حفلات العرس أو الختان فإنه يجد الحرية اللازمة لإغلاق الطريق إغلاقًا تامًّا في الجزء الذي يقع أمام داره ويقيم فيه بالسجاجيد والحصير بهوًا فخمًا يستقبل فيه كل مدعويه.

أمَّا السوق فإن كل الطرق الموصلة إليها تكتسحها القوافل وتزدحم بالجمال والحمير والخيل والأغنام والماعز والأكياس المنتشرة على الأرض وبالقِرب وصفائح البنزين والكيروسين وتكتظ بجمهرة كبيرة من التجار والحمالين والهجانة ورجال الجمارك، وكل هؤلاء لهم أصوات وأحاديث لا تنقطع وجلبة وضوضاء لا تهدأ، يُباريهم فيها من المقاهي التي تفتح أبوابها حول السوق -الزبائن المتمددون فوق أسِرة طويلة من الصفصاف أمام الموائد، وأمامهم النرجيلات المزركشة يخرج منها الدخان فيملأ الهواء.

وفي الطرقات الملتوية القريبة من السوق يوجد دائمًا جمهور كثير الضجيج والجلبة، فيجلس الباعة على أبواب حوانيتهم يشربون ويدخنون هم أيضًا، وبضاعتهم معروضة على مقاعد مستطيلة أمامهم، ومن آنٍ لآخر يحرك الواحد منهم دون أن يبرح مكانه ندبة طويلة يهش بها على بضاعته فيثير غيومًا من الذباب وعندئذ يبدو البلح والعنب والخبز والسمسم والحلوى وقد رُصَّت في سلات جميلة متعددة

الألوان.

أمّا جواز السفر إلى صنعاء فإنه لا يصل... وإذن لا بد من مقابلة حاكم المدينة للتحدث معه في شأنه. وللذهاب إليه كان يتحتم عليَّ أن أقطع طريقًا رمليًّا طويلًا تغوص فيه القدم حتى الكعب مدى نصف ساعة على الأقل؛ لأنَّ دار الحكومة قد بُنيت في خارج المدينة على حدود الأرض الجرداء، وأُقيم حولها سور من القش، وعلى بابها كشكان؛ بني أحدهما بالطوب وأُقيم الثاني من حصير، وقد وقف حول كل كشك من الكشكين ستة من العساكر، كما علقت في مدخل الدار على الجدران السلاسل والأغلال التي تقيد بها أقدام المسجونين.

وحاكم المدينة شخصية كبيرة محترمة، وموظف ذو شأن عظيم، وهو أيضًا أحد أفراد أسرة (الوزير) وابن عم أمير (تعز)، وقد ولي هذا المنصب الخطير رغم حداثة سنه لأنه قام بخدمات جليلة لمليكه ولبلاده؛ إذ تولَّى قيادة عدة حملات عسكرية؛ منها الحملة على بلاد العسير، ثم إنه في أثناء الخلاف الأخير بين الحجاز واليمن قام بالمحادثات والمفاوضات الدبلوماسية وأمضى نيابة عن اليمن (اتفاقية الطائف) التي وضعت حدًّا للخصومة بين القطرين العربيين، ولقد رأيت على جدران البهو الذي استقبلني فيه سيفًا ذهبيًّا معلقًا، وهو الذي أهداه له الملك ابن السعود بعد توقيع (معاهدة الصداقة الإسلامية والأخوة العربية).

ولقد ولي ابن الوزير هذا المنصب على إثر عودته من الحجاز، وسكن هذا القصر الفخم الذي كان الأمير فيصل آل سعود يتخذ منه حتى أيام قلائل مقرًّا لهيئة أركان حربه.

وعبد الله ابن الوزير يفيض رقةً ولطفًا وتبدو على محياه علائم الفطنة وأمارات

الذكاء، وقد استقبلني استقبالًا حافلًا، واهتم بالسؤال عن صحتي وعما صادفته في رحلتي، ثم أخذ يسألني عن الأحوال في أوربا، وقدَّم لي فنجانًا من القهوة وكوبًا من الشراب، كما حدَّثني حديثًا مستفيضًا عن أسرته وعن الأعمال التي اعتزم القيام بها في الحديدة لحماية شواطئها من فعل البحر الذي يأكلها تدريجيًّا.

ولكن ألا يستطيع أن يسلمني التصريح بمواصلة السفر إلى صنعاء قبل موافقة الإمام؟

ترى متى تصل هذه الموافقة؟

بكره. إن شاء الله. قال لي هذه العبارة وهو يبتسم ابتسامة عذبة بدت من خلال لحيته السوداء.

ومدينة الحديدة إذا قورنت بغيرها من المدن اليمنية كانت بلا شك أكبرها حركة وأعظمها نشاطًا، ويقيم فيها العدد القليل من الأجانب المقيمين في اليمن. وعلى بُعد بضع خطوات منها تتركز معظم تجارة اليمن الخارجية، والعبارة التي تسيطر على كل المعاملات وتتردد في كل الأحاديث هي دائمًا هذه: (بكره. إن شاء الله!) لأنَّ مصاعب الحياة وشدتها تذللها هذه الثقة في غد يكون فيه الفرج بفضل الله ورعايته.

وربما كان ذلك من فطرة عرب اليمن وطبعهم؛ لأن أوراق القات التي يمضغونها وسور القرآن التي لا يفتأون يرتلونها لما يثبت ويقوي هذه الفلسفة التي تسهل على الرؤساء والحكام أعمالهم.

وحاكم الحديدة رجل فطن خبير بالأمور يسعى جهده للإصلاح، ويهتم كل الاهتمام بالمحافظة على الروح الدينية في الشعب ويعمل على ذلك بكل الطرق التي

يراها والتي يستطيعها، وكما أن بطرس الأكبر قيصر روسيا ألزم الروسيين بحلق لحاهم عندما شرع في إنهاض الشعب الروسي وأمر بإعدام من لا يحلق لحيته، كذلك فعل عبد الله ابن الوزير؛ إذ فرض على كل المواطنين أن يرسلوا حول ذقونهم كل ما منحهم الله من شعر، كما أنه في أوقات الصلوات الخمس يرسل عساكره للتجول في الأسواق للتأكد من أن الجميع قد أجابوا دعوة المؤذن للصلاة.

ويدخل في الحديدة من (القات) ما يكفي لإدخال السرور والبهجة على نفوس ثلاثة أضعاف سكانها؛ على أنه لا تدخلها قطرة واحدة من النبيذ أو من أي نوع آخر من المشروبات الروحية، وهذا ما لا يضايق اليمنيين في شيء... ولكن ترى ماذا يكون حال الأوربيين؟

في كل يوم يقف ممثلو الشركات الإنجليزية التجارية ووكلاؤها من أعلى دورهم المطلة على البحر ويدورون بأعينهم في الأفق علَّهم يلمحون أية سفينة قادمة؛ لأن الأعمال التجارية وحركة المواصلات في البحر الأحمر لا ينتظم لها حال ولا يوجد موعد محدد لوصول السفن أو قيامها؛ بل إن المواعيد تتغير حسب ضرورات الشحن وتبعًا لأحوال البحر والجو ومزاج القبطان، وعندما تصل إحدى السفن أمام ميناء الحديدة تلقى مرساها على بعد ثلاثة أميال من الشاطئ، وللوصول إليها يجب على الإنسان أن يقضي نصف نهار على ظهر أحد السنابيك وعندئذ فقط يكون في استطاعته تناول كوب من الويسكي إذا شاء.

ومما يلاحظ على هذا النظام الجاف أن أعضاء البعثة التجارية الروسية الذين يُطلق عليهم العرب اسم (المسكوف) من المستطاع أن يتناول الإنسان في دورهم الشاي الفاخر ويستمع إلى شيء من ألحان رواية (كارمن) من أسطوانة في جراموفون قديم أصبحتْ لكثرة استعمالها تنم عن حشرجةٍ جاحدة لصوت ذلك المغني المظلوم.

ولا يبدو أن الروس يقومون في اليمن بصفقات طيبة أو بأعمال تجارية واسعة النطاق أو وفيرة المكاسب؛ لأنَّ منافسة اليابانيين الذين اجتاحوا أيضًا بلاد العرب وغزوها بمنتوجاتهم الرخيصة الكريهة لا يمكن التغلب عليها بحال. وقد يحدث في بعض الأحيان أن يلقي التاجر الروسي بعض الصعوبة في تحصيل ثمن بضاعته. ومع كلٍّ فهم يبقون هنا بلا عمل، ويحرمون أنفسهم من شرابهم (الفودكا) حيث يستبدلون برد روسيا بجحيم الحديدة.

وفي أثناء ذلك يزدحم العرب في سوق القات ويأخذ الباعة في التلويح بأعواده الرشيقة في الهواء وهم يصيحون والناس من حولهم واقفون يبتسمون وقد أضحوا في حالة نشوة؛ بينما تكون السماء من فوقهم قد اصطبغت بلون الورد. وهذه هي الساعات التي يزدحم فيها المتسولون وهم الخبراء والعارفون وعلماء النفس البارعون: وفي مناظرهم ما يُحزن وما يدعو للسخرية وما يُضحك وما يُبكي في آنٍ واحد؛ فهناك من يطلب (الحسنة) دون أن يتفوه بكلمة واحدة، ومنهم من يطلب المعونة والمساعدة وهو ينشد الأشعار، ومنهم من يجلس في ركن من أركان الطريق يستعطف الجمهور بمختلف الطرق والوسائل.

وأخيرًا يأتي رجالي لإخباري بوصول تصريح الإمام فأجد أشداقهم جميعًا منتفخة وهم يمضغون في هدوء فأقول لهم: إذن ومتى نسافر؟

وعندئذ تطول الوجوه الثلاثة قليلًا وتقول في نفس واحد: بكره إن شاء الله!

* * *

تستدعي أصوات نفير السيارة كل أهالي (باجل) وتسترعي انتباههم ويغضب (مسعود عوض) غضبًا شديدًا. ترى ما هذه الطريقة لإخلاء ههه صـ ٣٥.

وعندما تنحدر القوافل من الضباب والنجود تتخذ من (باجل) آخر مرحلة لها قبل أن تأخذ في قطع المرحلة الطويلة في الأراضي الجرداء المملوءة بعظام الجمال. وفي (باجل) يلتقي المسافر بالقوافل العائدة من (الحديدة)، وهذه القرية التي تعيش من هذه الحركة التجارية هي قرية مضيافة كريمة، فإن الحمالة بمجرد دخولهم في مساكنهم ينيخون إبلهم في منتصف الطريق ويربطون عصيهم في أفخاذها بقطع من الحبال وينزلون عنها أحمالها ويتركون كل شيء في مكانه كما لو كان هذا الطريق قد أصبح (سمسرة) (وهو الخان) ويذهبون إلى المقاهي حيث يأكلون أطباقًا من الأرز ولحم الضأن ويدخنون في نرجيلات ويشربون فناجين من (قشر) البن.

وفي الحق أنه يندر أن تمرَّ سيارة من هذه الجهة وفي أثناء سيرنا في الطريق الذي ينفرج بين الدور الواطئة والأكواخ الصغيرة نخاطر بالارتطام عند كل منحن بكيس من أكياس البن أو بالاصطدام بالإبل التي عند اقتراب السيارة منها يأخذ منها الذعر كل مأخذ، وتهب واقفة على أقدامها كأنها أشباح عجيبة هائلة.

وتقع (باجل) على حدود تهامة على سفح الجبل، وللوصول إليها من الحديدة يسير المسافر بمحاذاة البحر مسافة طويلة مارًّا بعدة واحات صغيرة ملأى بالنخيل وأشجار الدوم (وهي نخيل أخرى تنمو على شريط رفيع من الأرض، ويخيل للرائي أنها تنبت من مياه البحر الأحمر) ثم ينعطف بعد ذلك نحو الشرق ويقطع السهل الرملي الذي تنتشر عليه بعض الأعشاب القصيرة. ثم تعلو كثبان الرمل شيئًا فشيئًا ثم تبدو أكثر ارتفاعًا عندما نقترب من (باجل) وسرعان ما نجد بعد هذه القرية أول ساحة من ساحات التلال ثم نلاحظ بعد ذلك أولى التحصينات.

وتبتدئ اليمن الخضراء الحقيقية بالجبال ولكن ما عسى تكون قيمة تهامة الجرداء إذا ما قيست بهذه الهضاب الغنية الخصبة الزاهرة، وأي شأن لسكان تلك الأرض

القاحلة مع سكان الجبال الخضراء اليانعة؟ أما سكان تهامة فهم من جنس أقل عراقة وصفاء ويدينون بمذهب إسلامي آخر غير مذهب اليمنيين سكان الجبال وكل البلاد المنخفضة قد فتحت من عهد قريب؛ إذ احتلت جيوش صنعاء في سنة ١٩٢٥ مدينة الحديدة وسهلها حتى بلدة (ميدي) وفي سنة ١٩٢٩ تمكنت من إخضاع قبائل الزرانيق وأخذت من أبناء رؤسائها رهائن. وموطن اليمنيين إنما هو فوق الجبال الخصبة المنيعة البعيدة المنال حتى أن ملكهم لم يحاول قط الذهاب لرؤية البحر أو لزيارة المدن الساحلية ولم ير ضرورة لإنارة الفنارات المنشأة على سواحل اليمن.

أمَّا الوديان المؤدية إلى النجود وعلى الأخص الوديان التي يخترقها الطريق المؤدي إلى العاصمة، فإنها سرعان ما تبدو بجلاء وتظهر طبيعة البلاد على حقيقتها وتنم عما بها من ثروة زراعية هائلة وخير وفير، وأول ما يدخل الإنسان بين هذه النجود يرى حصنًا شاهق البنيان شيد فوق أحد التلال يسد الوادي سدًّا هو حصن (باجل) الذي يلتهب بنيانه المقام من الحجارة الحمراء ويتوهج عند اقتراب الغروب وعندما يغمر الظل هذا الوادي السعيد.

ويطول الطريق بين هذه الساحات الجبلية التي تزداد ارتفاعًا وصلابة، ثم يتقدم الإنسان بعد ذلك في الرمال بين حشائش وأحراش وأرض ليس بها من الأشجار غير اللبخ الباسق؛ ولكنه سرعان ما تقع عيناه على الوديان الأنيقة الكثيرة والخضرة اليانعة والمياه الجارية في كل مكان التي تخفف من حدة تلك المناظر الرملية الصفراء، ولا تلبث أن تظهر من فوق الصخور الناتئة أبنية عالية قاسية كلها مغلقة كأنها الحصون التي لها لون الجبل كما تظهر أرصفة وعرة قدت من الصخر تتفتح فيها بعض الطرق والمنافذ حتى ليخيل للرائي أنها من الكوات التي تطلق منها الأسلحة النارية في بعض القلاع، وما هذه إلا بيوت لها ذلك اللون الحربي العظيم تبدو كأنها

أبراج للخرس أو حصون للدفاع حتى ليحسب الإنسان أنه قد شيدها شعب من المردة والجان لحراسة مدخل محراب هيكل قدسي عجيب.

ويسير الإنسان تحت هذه الأبنية العابسة الصماء التي تشرف على الطريق، وعندما تغرب الشمس ويرخي الليل سدوله يخيل أنها تفتح عيونها القلقة الحائرة العديمة الثقة التي تتبع المسافر بنظراتها وترقبه أنّى سار.

على أن القرى في بطون الوديان أكثر بساطة وأكثر سكانًا وعمرانًا؛ فقرية (عبال) التي نقف فيها لقضاء ليلتنا هي أشبه شيء بقرية من القرى الإفريقية منها إلى قرية آسيوية، وكذلك أهلها يزيد لون بشرتهم سُمرة عن لون بشرة من رأيناهم من سكان البلاد، ويتكلم سكانها لغة عامية لم يفهمها أحد من رجالنا، ويسير أطفالها في الطريق حفاة الأقدام. وأجمل مساكن (عبال) هو (عريش) له جدران خشنة جافة طُليت من الداخل بالجير وسقفت بالقش، ويقدم في نظير ثلاثة ريالات في الليلة الواحدة للمسافرين الذين يضطرون للمبيت في القرية، ولكنا بمجرد أن نرش أرضيته بقليل من سائل قاتل للحشرات لا نلبث أن نشهد -والدهشة آخذة منا كل مأخذ- زحفًا سريعًا خاطفًا غير منتظم لجيوش جرارة من الهوام الصغيرة تتسابق فوق الجدران، وعندما نرش من هذا السائل على الجدران سرعان ما يسود لون القوائم والأغصان التي يستند عليها قش السقف، وهذا ما يدعو عبد القادر إلى حمل سريري السفري الصغير إلى الهواء الطلق بعد أن يغرس في الأرض ساريتين ينصب عليهما الكلة (الناموسية).

وفي وسط هذا الظلام الدامس ينفرد مضجعي الأبيض في الفضاء ويبدو كأنه أحد الأضرحة التي يقيم حولها اليمنيون الستور والأعلام الصغيرة الخضراء والحمراء والبيضاء. فهل ترى يحدث أنني عندما أستيقظ في الصباح أجد على حين

بغتة حولي جماعة من البدو يصلون ويتبركون حول سريري وعندما يروني أنهض من فراشي تأخذهم الدهشة من هذا البعث الزائف وينتشرون في الأرض ليبشروا قومهم بهذه المعجزة الجديدة؟

أمّا الآن فلا توجد إلا الكلاب الضالة هي التي تقترب مني ذاهلة لتفحصني ولما يخرج الأهالي بعد من أكواخهم الحقيرة، وعندما يخرجون في الطرق أرى رجالًا أنصاف عراة، كما أرى النساء بقبعاتهن المخروطة الشكل يتحركن أمام النيران الموقدة، وأسمع من حولي أصوات منكرة وصرخات غير مفهومة. ترى لِمَ هذه الكثرة في العبارات في أحاديث أهل (عبال)؟

أمّا رجالي فلا يعلم إلا الله أين ذهبوا؛ وأما أنا فأشهد منظرًا محزنًا؛ إذ تقع مشادة عنيفة بين امرأتين من نساء القرية وهنا أسمع صرخات تصم الآذان وعبارات متقطعة تنتهي كل منها بعلامة من علامات الاستفهام، ولا تلبث هذه الأصوات أن ترتفع وهذه النغمات أن تعلو علوًّا كبيرًا ويظهر فيها التهديد والوعيد، ترى هل تتخلص المتخاصمتان آخر الأمر مما فوق رأسيهما لتملك كل منها بشعر الأخرى؟

ولكن ها هي ذي المشاجرة تهدأ على حين غفلة وتنتهي المناقشات، ثم لا تلبث القرية أن يسودها صمت عميق وتخرس كل الألسنة فلا تسمع إلا غناء الصراصير ونقيق الضفادع يتردد من كل الأنحاء، ثم نسمع نباح الكلاب ثم استغاثة إنسان، ثم لا نلبث أن نرى أسنمة إبل تسير من خلف السور وعندئذ ترتفع الأصوات من جديد حول القافلة العائدة، ثم يسود الصمت مرة ثانية، ويقطع هذا السكون بكاء أحد الأطفال وهو الصوت البشري الوحيد الذي يمكن فهمه وتمييزه بين أصوات هذه الخلائق الجامحة.

كان طريق صنعاء القديم المؤدي إلى (عبال) يسير في اتجاه (الحجيلة) وكان يقطعه المسافرون على متون البغال في صعودهم في جبال (مناخة). أمَّا الطريق الجديد فهو أطول قليلًا ولكن من الممكن أن تسير فيه السيارات والعربات ووسائل النقل الميكانيكية؛ ولكن مما لا شك فيه أنه مما يحزن حقًّا أن يضطر الإنسان إلى عدم دخول مدينة (مناخة) ذات الشهرة العظيمة والمناظر الخلابة، ولكن مما يهون ذلك اجتناب دخول سوق (الخميس) الذي هو المحل المختار للبراغيث اليمنية. على أن هذا الطريق يحتوي أيضًا على أشياء فاتنة جذابة تسر النفس ومناظر تبهر النظر، على أنه لا يخلو من بعض المضايقات، وفي كل حقل من هذه الحقول تظهر تكعيبات العنب في صفوف منتظمة طويلة لا آخر لها يقف الحراس من فوقها يلقون من آن لآخر بصيحاتهم المزعجة لإبعاد الطيور والعصافير الشرهة عنها.

ونجد في مدينة (العبيد) جمهرة كبيرة من الخلائق الصاخبة قد اجتمعت بين دورها الصغيرة المشيدة بالأحجار الخشنة. إنه يوم السوق وفيه يأتي رجال قبائل المنطقة للمقايضة على غنمهم وماعزهم بما يحتاجون إليه من ملح وكيروسين وأحذية وفوط وما إلى ذلك. وإذا ما سار الإنسان بعد ذلك يجد نفسه قد دخل في واد غير ذي زرع، ويكون مسيرنا فيه مدعاة لهرب قبيلة صغيرة من القردة عندما تشعر بأنها قد أصبحت في مأمن منا فوق الجبل تسمعنا بصرخاتها الغاضبة كل ما تكنه من حقد وكراهية للمدنية الميكانية. وقد ضايقت سيارتنا في طرقات اليمن كثيرًا من الناس من جمالة ورعاة أغنام ومسافرين وبدو رحالة وفلاحين وتجار لم يظهر أحد منهم لنا استياءه ولم يفتح فمه بكلمة احتجاج سوى القردة (الماكاكي) التي تسكن وادي (السلفية). والمناطق التي تسكنها تلك الوحوش الهائجة يلطف مناخها ويجمل مناظرها ما ينبت فيها من ثمر عجيب يقال له: «أصبع مريم». نرى هل يوجد نبات له شكل أدى للضحك والسخرية من هذا النبات؟ إن له لجزعًا عظيمًا جديرًا بشجرة

هائلة ذات ساق عالية؛ ولكن هذا الجزع سرعان ما يصغر حتى أنه بعد الارتفاع متر واحد ينقبض ويتضاءل إلى أصغر حجم وتحمل هذه الشجرة المخروطة الشكل قليلًا من الأغصان الدقيقة العارية من الأوراق تنتشر فوقها زهرات صغيرة حمراء تحملها أوراق دقيقة.

ها نحن أولاء نرى على الطريق من ناحية الوادي الأخرى شيئًا يتصاعد منه الدخان له بريق يتقدم نحونا، ترى ما هذا الذي نرى وما عسى أن يكون؟ إنه ويا للهول سيارة أخرى وهي أول سيارة نقابلها في طريقنا بعد أن تركنا أرض عدن. ترى أيكون في استطاعتي أن أعرف إلى أي جانب من جانبي الطريق يجب المسير في الطريق اليمنية؟ حتى ولا مسعود عوض يعرف ذلك وها هو ذا يمشي في منتصف الطريق وهو على استعداد للميل إلى هذه الناحية أو تلك حسب ما تقتضيه الظروف، وها هو ذا السائق الآخر يحذو حذوه ويتقدم نحونا بسيارته الضخمة وهو أثناء مسيره ينفخ في بوقها بغضبٍ وجنون نفخًا متواصلًا، ومسعود هو الآخر لا يوفر بوق سيارته ويبدو على وجهه الملل والغضب ويكاد يتميز من الغيظ؛ لأنَّ السيارتين أصبحتا على مسافة خمسين مترًا من بعضهما، ولكن ها نحن أولاء نرى السيارة الأخرى تنطوي على حين بغتة وتنعطف في داخل الحقول التي على أحد جانبي الطريق وهي تشرئب بمقدمتها إلى الأعلى ثم لا تلبث إلى أن تعود سيرتها الأولى وتستأنف طريقها بعد أن نكون قد مضينا في طريقنا بسلام.

وفي الظهر نصل إلى (حمام علي) وهو المكان المشهور بمياهه المعدنية وبما أنشئ فيه من الحمامات التي يقصدها الناس من كافة أنحاء اليمن في الفصل المناسب، وتتجمع مياه الينابيع في هذه المؤسسة التي هي مبنى هائل طليت جدرانه باللون الأبيض وتبدو واضحة تمام الوضوح فوق الصخور السمراء التي يذهب إليها المرضى بعد

الاستجمام للاختباء تحت الأرض بقصد الاعتكاف قليلًا في كهوفها القديمة المحفورة في الجبل كأنها خلايا النحل.

بعد ذلك نسير طويلًا في وديان (الحرس) لا لشيء إلا لكسب مرحلة من المراحل وتوفير مسافة من الطريق؛ لأنَّ طريق السيارات إلى صنعاء يسير في محاذاة المرتفعات، وقد وجد البناءون اليمنيون كثيرًا من المصاعب منذ سنين في شق الصخور وقطعها، وفي هذه المرحلة نضيع من الوقت ما لا يقل عما قضيناه في قطع باقي الطريق.

ويسير الطريق على جوانب جبال شاهقة تتخللها وديان يانعة وتتناثر على جوانبها قرى كثيرة بها مآذن صغيرة تتجمع فوق قممها، وكم كان يسرنا أن نقطع هذا الطريق لو لم نضطر للنزول عدة مرات من العربة لدفعها لأن عجلاتها كانت تدور (على نفسها) في الحصى والرمال دون أن تستطيع التقدم.

ولكن ها نحن أولاء بعد جهود مضنية ومتاعب نلاقيها من الرمال المتراكمة ومن محرك السيارة نصل أخيرًا إلى رأس ممر صنعاء ولعمري إن عظمة منظر هذه الهضاب اليانعة لتنسي الإنسان كل تعب وعناء، وهذا هو ما يدعو اليمنيين للافتخار والمباهاة بجبالهم التي يعيشون فيها في ربيع أبدي محبوب والتي تحبيبهم أرضها الطيبة الخصبة بكرم وسخاء، فهم يروون حقولهم بجمع مياه الأمطار التي تنهمر فوق المنحدرات ويحيطونها بسدود صغيرة ويغترفون من تلك الطينة المترعة بواسطة آبارهم النموذجية ويحفرون لها صهاريج عظيمة تعود بالذاكرة إلى الأساطير القديمة التي يفخر بها الري في هذه البلاد التي عرفت في العهود السابقة على التاريخ كيف تبني سد (مأرب) الشهير المنقطع النظير.

ثم تتوالى النجود بعد ذلك واحدًا بعد واحد في أشكال مخروطة لا نهاية لها

تفصلها عن بعضها سلاسل جبال منخفضة، ثم تظهر تدريجيًّا مباني القرى باردة عابسة في أول الأمر، ثم لا تلبث أن تصير أنيقة زاهرة ونقابل على الطريق، وفوق الجبال خلائق يكثر عددها كلما تقدمنا في مسيرنا هم عرب المدينة وكلهم يرتدون أقمصة من الصوف اللين ذي الزغب الكثير ورجال قبائل يلبسون ملابس من جلود الماعز وبدو يتغطون بالأسمال.

وأخيرًا على سفح جبل (نقم) تظهر صنعاء الزاهرة بسورها الطيني الكبير وقصورها الشاهقة الأنيقة ومآذنها الستين!!



٤

صنعاء عرش اليمن[١]

كان على الأجنبي في العصور الماضية إذا ما وصل إلى العاصمة اليمنية أن يتجه نحو (باب الحقل) دون غيره من أبواب المدينة الثمانية المفتوحة في سور صنعاء، وعندما كان يدق على هذا الباب كانت تفتح إحدى الكوات الصغيرة، وكان عليه إذ ذاك أن يقدم للحراس الواقفين من ورائها عريضة يذكر فيها شيئًا عن شخصيته ويلتمس فيها الإذن بالدخول، وكانت هذه العريضة تحمل إلى حاكم المدينة الذي كان بعد الاطلاع عليها إمّا أن يسمح لهذا الأجنبي بالمثول في حضرته لبيان الأسباب التي دعته للحضور، أو يأمر بإغلاق الكوة في وجهه بقسوة وخشونة وبدون شفقة ولا رحمة.

على أن اليمنيين أصبحوا مع مرور الزمن أكثر تسامحًا مع الأجانب؛ ومع ذلك فقد كان هذا التقدم بطيئًا؛ ففي عام ١٧٦١ وصل إلى سوار صنعاء المسيو نيبوهر وزملاؤه أعضاء البعثة التي أرسلها ملك الدانيمارك إلى بلاد العرب واضطروا للنزول من فوق بغالهم ودخول مدينة العلويين راجلين؛ ولكن هذه المعاملة القاسية المذلة قد أصبحت اليوم وقفًا على الأهالي اليهود[٢] دون غيرهم، وقد فتحت أبواب المدينة كلها للداخلين سوى الباب الموصل إلى القلعة، ولقد كان دخولنا إلى المدينة

---

(١) ترتفع صنعاء عن سطح البحر بألفين وأربعمائة متر.

(٢) نلاحظ أن اليهود في اليمن يعاملون معاملة مرضية وفق الشريعة الغراء، ومعلوم أن الشريعة المحمدية قد أوصت بأهل الكتاب عامة.

من (باب اليمن) الذي هو أجمل وأهم أبواب صنعاء وهو كثير الحركة والجلبة يعج دائمًا بالداخلين والخارجين، وينتهي عنده طريق القوافل الكبير الذي يخترق من تعز واب ويريم وذمار ومعبر معظم الهضاب اليمنية الغنية المزدحمة ومنه يمرناس من كل نوع هم شعب مختلف الأشكال والألوان من بدو ومن حضر ومن عساكر وحماله ومتعطلين.

ويقطع (باب اليمن) المحصور بين برجين هائلين نطاق السور العظيم الذي يحيط بالمدينة، وقد شيد هذين البرجين[1] السلطان صلاح الدين الأيوبي بأحجار وردية وخضراء وغبراء، وزانهما بهذه الألوان الجميلة الزاهية ويقال: إن (السلم الموسيقي) وجد بين بقايا (السد) الذي يكسب مملكة سبأ تلك الشهرة العظيمة والثروة الأثرية الكبيرة والذي أخذت منه هذه الأحجار. ولهذا الباب مصراعان جميلان حفرت عليهما نقوش جميلة تأخذ بالألباب؛ ولكن ليس في استطاعة أحد الوقوف أمامها طويلًا لتأملها وفحصهما بما يستحقان من العناية؛ إذ جرت العادة بأن تسمر أيدي اللصوص الذين يضبطون متلبسين بالسرقة على جوانبهما.

وبعد أن نتخطى عتبة هذا الباب نصبح في قلب صنعاء وعندئذ نشعر بأن كل شيء في هذه المدينة العظيمة قد صنع لإدهاشنا وتحيير أفكارنا؛ إذ خيل إلينا أننا نعيش في حلم من أحلام الطفولة المعسولة اللذيذة وتعود بنا الذاكرة إلى تلك الأيام التي كنا لا نزال فيها أطفالًا نتخيل مدينة الخرافات والأساطير الغريبة التي كانوا يقصون علينا قصصها ويسهبون لنا في أوصافها قبل أن يعقد النوم جفوننا، فمن قصور غريبة فخمة إلى دور ظريفة كلعب الأطفال عملت في زخرفتها وتنميقها يد عامل صناع من صانعي الحلوى إلى قباب جميلة ومآذن رشيقة عالية تطاول السماء إلى

---

(١) هذا مناف للحقيقة والواقع.

ميادين فسيحة الأرجاء استعملت أفنية وأسواقًا وخانات إلى شوارع وطرقات تنساب بين الأبنية كالحيات بدون اتجاه معين وبغير منطق مغقول إلى حوانيت ضيقة تنبعث منها روائح العطور والتوابل ويتلألأ فيها بريق المعادن الثمينة والأحجار الكريمة. أليست هذه كلها مناظر ألف ليلة وليلة؟

وكذلك الجمهور الذي يتجول في الطرقات فإنه يخيل إلينا أنه خرج من صفحات قصة من القصص الغريبة الشائقة إذ يمر فوق صهوات جياد (الجوف) العربية الأصيلة أمراء عظام وحكام كبار يرتدون الملابس الفضفاضة البيضاء، وعلى أكتافهم الكوفيات والشيلان الخضراء أو الحمراء، ومن ورائهم حراسهم وخفرهم وغلمانهم. كما تمر نساء مبرقعات وبدويات سافرات عليهن جاكتات صنعت من الجلود تبدو منها صدروهن العارية، وموظفون من موظفي الدولة بعمائمهم البيضاء الكبيرة يصحبهم خدمهم يحملون لهم النرجيلات اللامعة البراقة. ويمر رجال القبائل ذوو الوجوه الزيتونية الشاحبة وهم أيضًا مسلحون بخناجر مقوسة شدت إلى بطونهم في أحزمة من الجلد، ثم يهود نحاف الجسوم صفر الوجوه تبدو عليهم علائم الحزن والغم، وقد تدلت لحاهم الطويلة حول أصداغهم. ثم تمر كذلك أرتال بطيئة طويلة من الإبل والخيل والحمير وقطعان غير منتظمة من الغنم والماعز، وغير ذلك مما لا يحصيه عد.

وقد يحدث أيضًا في أثناء السفر في بلاد مدهشة مثل هذه البلاد التي يخيل أن التاريخ فيها مرتبط تمام الارتباط بالأساطير والخرافات أن يلتقي الإنسان بأشياء ويرى مناظر كان يعتقد أنها قد اختفت إلى الأبد بفعل مرور الزمن تجعله يشعر بأسف غريب يهون معه الإحساس بالغربة والحنين إلى الوطن، ولعمري إن أهالي اليمن لعلى حق في زهوهم وافتخارهم بعاصمتهم الظريفة التي يسمونها (عرش

اليمن). ألم يؤسسها قحطان الذي أعطى أكبر أبنائه يعرب للشعب العربي اسمه ولغته؟ وترجع أصول صنعاء للأساطير كما هو مقرر لكل مدينة تفخر بأساطيرها القديمة ومدنيتها الغابرة وتاريخها الماضي المجيد، ولما ارتفعت صنعاء إلى مرتبة المدن الكبيرة وأصبحت عاصمة البلاد بعد تدمير مدينة (مأرب) وتفرق شمل آل سبأ ظلت مدى ألفي عام ميدانًا للحروب ومركزًا للمنازعات التي احتدمت في تلك البلاد التي لجمالها ولكونها أغنى بقاع الجزيرة العربية كلها كانت مثارًا لأطماع الطامعين واجتذبت إليها أنظار الغزاة والفاتحين من كل صوب ومن كل بقعة من بقاع الأرض.

ولقد كان الحصار الأخير الذي ضرب حول صنعاء في الأيام الأخيرة شيئًا قريب العهد بعد تلك الفترة التي كان فيها الإمام الحالي يعمل بكل ما استطاع من جهد لتخليص وطنه من براثن الاستعمار العثماني. ويبدو للناظر أن صنعاء قد احتفظت بشكلها القديم كاملًا؛ ذلك الشكل الذي كان لها في عهد الخلفاء العباسيين عندما كانت رائعة الجمال، وكان شعراؤها يتغنون بجمال حدائقها الغناء ومياهها الجارية وبما فيها من المباهج والمناظر التي تبهر العيون وتأخذ بالألباب، وكانوا يرون أنها فريدة في محاسنها لا مثيل لها في جمالها، ولا يعرفها ويقدرها إلا من أتيح له دخولها والعيش في ربوعها.

وفي الحق أن صنعاء في حالتها الراهنة تعتبر مدينة تعيش على هامش الزمن، شيَّدها شعب ذكي متفنن قدير. ترى كم من السنين قد انقضت على تشييد تلك المباني الشامخة المدهشة؟ ترى هل بنيت بالأمس أو بنيت من ألف سنة؟

لا علم لأحد بذلك ولا يعرف إنسان شيئًا عن مدارس المعمار التي ازدهرت يومًا ما في العربية السعيدة والتي ابتدعت هذه الأشكال المعمارية الأنيقة البارعة الجمال

والزخارف التي تحير العقول، والتي بقيت إلى اليوم دون أن يأتي الزمن عليها أو ينال من جدتها. ففي مكان هذه القصور كانت قصور وقصور كانت لها نفس الموازنة وفيها نفس النسب، ونفس هذا الخليط العجيب من النوافذ والشرفات والمشربيات من مختلف الأشكال والمقاسات، ونفس الزخارف التي تمت بصلة للذوق الفارسي الأنيق.

ترى هل من الممكن أن تكون هذه عاصمة بلاد يسكنها شعب من البدو؟

إن من يتحدث عن البداوة في اليمن من المحتمل كثيرًا أن يخلط بين العربية السعيدة والعربيات الأخرى التي أعطت مميزاتها الطبيعية لبلاد العرب هذا الاسم الممقوت الذي لا تحسد عليه أي اسم (صحراء العرب) إذ إن هنا لكل شيء من رجال أو مبان -أصول عميقة ثابتة في الأرض لأنْ تربتها كثيرة الأنهار واسعة الثراء.

حقيقة توجد في بلاد اليمن بعض القبائل البدوية الرحالة تعيش جهة الشرق على هوامش ذلك البحر الرملي الكبير الذي يغشي تلك الصحراء الشاسعة التي لم تكشف بعد ولم تعرف بواطنها والتي بني فيها -على ما ترويه الأساطير القديمة- أحد ملوك اليمن الأقدمين مدينة عظيمة شاهقة البنيان يقال لها: (إرم ذات العماد) ولكن هل لبدو الشرق هؤلاء أي أثر في حياة البلاد الاقتصادية؟ وهل يدخلون ضمن الحساب عندما يقدر الناس تعداد الشعب اليمني بخمسة ملايين من الأنفس؟

ليس الإمام يحيى بحاجة لتقليد زميله ابن سعود الذي ينشئ (مستعمرات الإخوان) لتحقيق مشروعه العتيد الذي يرمي إلى تثبيت الرعاة من البدو في الأرض؛ لأنَّ اليمنيين قد بنوا من آلاف السنين مساكنهم وزرعوا حقولهم، ولا أثر للبداوة في

اليمن؛ لأن الجمالة ورعاة الإبل أنفسهم الذين يؤمنون بضرورة التنقل من منطقة إلى منطقة تتكون منهم كتلة من أناس لهم حركة لا تهدأ وعادات من الممكن اعتبارها من عادات الحضر؛ لأنَّ مراحلهم تنتهي دائمًا في الأوساط المسكونة فهم في تهامة يقضون ليلهم في داخل نطاق من القش؛ ولكنهم في الهضاب حيث يشتد البرد في الليل يأوون في أماكن أعدت لراحة القوافل هي غرف كبيرة واسعة يلحق بكل منها مخزن وإسطبل يلجأ إليها بإبلهم التي يشاركونها فيها الدفء والحشرات.

وتضحي صنعاء من حرمتها واعتبارها وجمالها وبما لها من كرامة بوصفها مدينة مقدسة بحريات كثيرة تتوفر في أوساط يمنية أخرى، فهنا نجد الحياة الاجتماعية أشد جفوة وأكثر عبوسًا -على الأقل في مظاهرها الخارجية- عنها في أية مدينة أخرى. ترى أين ذهبت عريدة جماهير الحديدة وصيحاتهم؟ (ولكن الحديدة كما هو معلوم مدينة أفسدها وجود المشركين بها).

ويوجد على مقربة من (باب اليمن) الذي سلكناه في دخولنا إلى العاصمة اليمنية شارع أطلق عليه اسم (شارع بحر زجرج) لأن دوره كان يسمع فيها في العهد التركي غناء (العوالم) الخليع، وكانت تشهد رقص (الغوازي) المتهتك وكان يغشاها دائمًا جمهور كبير من حثالة الناس حيث يشربون ويلهون ويطربون ويرتكبون المحرمات والآثام على أن تلك (الرجرجة) قد سكنت اليوم؛ لأنَّ الشريعة التي تحرِّم اللهو والرقص والغناء وشرب الخمر وغير ذلك من المنكرات تنفذ بكل حزم وشدة في المدينة التي يسكنها الإمام يحيى الذي هو (أمير المؤمنين) -والتي يراقب فيها أئمة الزيدية الأربعة مراقبة شديدة كل مظاهر الحياة الاجتماعية.

وقد اختفت بانتهاء الاستعمار التركي حتى بعض مشارب القهوة التي كان يقضي الناس فيها معظم أوقاتهم في لهو وسمر، وأصبح الآن أهل صنعاء في أحسن حال؛ إذ

خلصوا أرواحهم وطهروا نفوسهم طمعًا في دخول الجنة التي وعدهم بها نبيهم والتي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. ومع ذلك فإن طرقات صنعاء لا تزال كثيرة الحركة والضوضاء، ولا سيما الشوارع الرئيسية، وتتكون صنعاء من عدة أحياء تدخل كلها ضمن دائرة كبيرة من الأسوار، وتنقسم فيما بينها بأسوار أخرى حتى لتبدو كأنها خزائن مغلفة بإحكام في إحدى المدرعات. وفيها (سوق العزب) وهو أشبه شيء بالحدائق العامة المسكونة، وقد شيد الأتراك هذا الحي[1] في أيام حكمهم للبلاد. كما يوجد في طرف المدينة الغربي (حي اليهود) ولكن (المدينة) وهي البلدة العربية القديمة هي دائمًا أهم الأحياء وأكثرها سكانًا وأعظمها حركة؛ ففيها الكثير من القصور الجميلة والمساجد الشاهقة والحمامات العامة والصهاريج والسوق الفتان الذي تعرض في دكاكينه الصغيرة التي تفتح كأفواه الأفران على الحارات الضيقة كل ما تنتجه أو تستورده (العربية السعيدة) من الخارج.

وإلى جانب (المدينة) حي آخر يقال له حي (المتوكل) يقيم فيها الملك، وإلى الجانب الآخر توجد القلعة وهي قوية متينة البنيان لا يدري الناظر إليها إذا كانت شيدت للدفاع عن المدينة أو لتهديدها. ولكن ترى أين يستطيع أهل صنعاء أن يجتمعوا إذا ما أرادوا التحدث أو السمر؟

إنهم يجتمعون في (المفرج) الذي لا بدَّ من وجوده والذي لا غنى عنه في الدار اليمنية؛ على أن بيوت الأعيان وعلية القوم تحتوي على (مفرجين) أحدهما في الحديقة تظلله أشجار المانجو والرمان وأمامه النافورة الفخمة تنثر المياه والثاني في أعلى القصر. والمفرج بهو فسيح فتحت فيه كوات وكوابيل متعددة في جدرانه وازَّينت حوائطه بزخارف بارزة من الجص، وبه صفان من النوافذ أحدهما فوق الآخر،

---

(١) ليس الأتراك هم الذين شيدوه وإنما عمروه منذ سكنوه.

فالعليا وهي كعيون المها مغلقة بألواح رقيقة من الرخام أو من البلور ينفذ من خلالها وقت الظهيرة نور ضعيف.

وأما أرض (المفرج) فتفرش ببسط شرقية زاهية الألوان تصف حولها وسائد وثيرة يجلس عليها رب الدار وحوله ضيوفه على الطريقة التركية، وتقوم في وسطه النرجيلة الفخمة المبرقشة ويقضي الصنعانيون في الحديث والسمر ساعات طويلة وهم يدخنون ويمضغون (القات) ويبصقون فيما بين ذلك من آن لآخر في مباصق معدنية صغيرة وهم في أنس وبهجة وانشراح ويعلقون في أحاديثهم على الأحداث السياسية العالمية التي يتلقون أنباءها من الجرائد العربية التي تصدر في مصر وفلسطين والشام كما يتحدثون أحيانًا في الشعر والأدب وما إلى ذلك.

وفي خارج طرقات السوق الصاخبة لا تسمع أصوات صنعاء. ولا يظهر لها أثر على أن المدينة كلها تغمرها في الصباح الباكر قعقعة بكرات الآبار؛ لأنَّ لكل دار يمنية حديقة، ولكل حديقة بئر تروى منها، وتقف على حافة كل بئر ناقة كسولة نهمة تروح وتغدو في طريق ملتوية تطول عندما تكون المياه بعيدة الغور وترسل من أعلى ومن أسفل القرب الجلدية الضخمة تفيض بالمياه.

وفي المساء يرتفع عواء الكلاب الضالة ونباحها؛ لأنه يوجد -على مقربة من (القصر الملكي) في شارع فسيح يكاد يكون لاتساعه وقصره ميدانًا- سوق اللحم وفيه تتجمع كل كلاب المدينة التي تحيي الليل بعوائها الطويل ونباحها المتواصل، ولمطاردة هذه الكلاب جيء بكلاب أخرى لا تنبح ولكنها تعض إذا لم تربط بالسلاسل.

ولا يسمع للجمهور صوت إلا في أيام رمضان عندما يعلن مدفع القلعة انتهاء

الصيام، وفي أثناء الحفلات الدينية والعسكرية التي تقام في يوم الجمعة؛ فإنه يتحمس ويملأ الطرقات نشاطًا وحركة؛ وفي غير ذلك يسود المدينة صمت عظيم، وفي خلال هذا الصمت ترى النساء يمضين في سكون ووقار داخل براقعهن وحجبهن كأنهن الأشباح؛ لأنَّ البرقع اليمني لا يشبه في شيء ذلك البرقع الشفاف الذي كان نساء القاهرة حتى سنوات قليلة يضعنه على وجوههن؛ وإنما هو قناع كثيف كل الكثافة لا يستطيع النظر أن ينفذ من خلاله أو يتكهنَّ بما وراءه.

ويبدو أن نساء صنعاء جميلات ورشيقات، ويجب أن أعترف بأني لا أقول ذلك عن علم لأنهن يمضين في الطرقات والشوارع في المدن اليمنية ولا يمكن أن يراهن أحد؛ بل له أن يتخيلهن إذا شاء؛ إذ ترى الواحدة منهن كأنها كومة صغيرة من الملابس المتعددة الألوان تمشي على قدميها بين الناس، فإذا ما سألت عن تلك الكومة المتحركة قيل لك: إنها امرأة ولا شيء أكثر من ذلك. وكل امرأة يمنية تحمل معها في سيرها سر سمها وسر وجهها وسر جسمها وسر عمرها، ولا يستطيع الإنسان أن يفهم كيف تتبين عيونها الطريق من خلال هذه البراقع الكثيفة.

ومن المؤكد أن اليمنيات لسن متبرمات بهذا الزى شأنهنَّ في ذلك شأن البندقيات اللائي كنَّ في القرن السابع يلبسن الوجوه المستعارة؛ إذ كان يحدث أن يقابل الرجل زوجته أو ابنته أو أخته في الطريق دون أن يستطيع التعرف عليها أو تمييزها من غيرها، ويبدو أيضًا أن بقاءهنَّ في (الحريم) لا يحزنهن كثيرًا؛ إذ لدى كل منهن في مملكتها الصغيرة الكثير من المشاغل، ويكفي أن يعرف الإنسان ما يلزمهن من الوقت ومن الصبر للتخضب بالحناء ورسم وشى رقيق على وجوههن وأذرعهن وأيديهن وأقدامهن، فضلًا من مشاغلهن المنزلية الأخرى.

٥

ملك العربية السعيدة

في الصباح الباكر ولما ترسل الشمس خيوطها الذهبية الأولى يدق بابي جندي من عساكر الإمام دقًّا متواصلًا. ترى من الطارق؟ وماذا يريد مني في هذه الساعة المبكرة؟

إنه الإمام يرسل طعام الإفطار إلى ضيف من ضيوفه مع جندي من جنوده!

ومما يلاحظ أن (السياحة) أمر مجهول تمام الجهل في البلاد اليمنية، (وربما يصعب على القارئ تصديق مثل هذا القول؛ ومع ذلك فإنه لا تزال توجد في العالم بلاد تخلو من هيئات تفكر في استجلاب السائحين إليها بوعود معسولة ومغريات كاذبة لكي تحبب إليهم السفر، ولكي تجعل سفرهم كثير الكلفة والنفقات) وذلك لأن من يحصل من الإمام يحيى على تصريح بزيارة مملكته يصبح (ضيف الإمام) وفي هذا فوائد كثيرة وميزات لا يستهان بها، ولو أن فيه أيضًا بعض المتاعب التي ما كنا لنقيم لها وزنًا لو أننا لم نكن ممن يحبون أن يضعوا أنوفهم في كل شيء وأن يفعلوا دائمًا كل ما يشتهون.

وتصبح (ضيافة) الملك اليمني محسوسة على الأخص في المدينة التي يقيم هو فيها؛ لأني طالما بقيت في صنعاء سوف يأتي عسكري يقظ، طلق المحيا، باسم الثغر لزيارتي في كل صباح يحمل إليَّ ما يسمونه في روسيا الشيوعية (البايوك) وهو (الجراية) عينًا وتتكون هذه الجراية من ثلاثة أرغفة من الخبز، وقطعة من لحم الضأن، وبضع بيضات صغيرة، (وزبدية) حمراء ملأى بالزبد المأخوذ من لبن الماعز، وبعض الخضر، وقليل من الزيت واللبن والبن والفاكهة.

يالله! ما أكرم هذا الملك! وما أعظم سخائه! ومع ذلك فطالما شوهوا سمعته في الخارج وأذاعوا عنه ظلمًا أنه أبخل إنسان على وجه البسيطة.

وحتى في (المفارج) التي تكثر فيها الأحاديث وتتبسط فيها الألسنة والتي هي أشبه بالصالونات الأوربية؛ لا يسمع الإنسان إلا أحاديث وأقاصيص غريبة لا يصدقها العقل؛ إذ إن أعظم احتياط يدبر به الإمام مالية بلاده يصبح موضوعًا للتفكه والتندر، والأحاديث في ذلك مستفيضة والنوادر كثيرة. ترى هل حق ما يقال من أن موظفيه الذين يعملون في سك النقود ثم من اليهود المحكوم عليهم والذين أوقف تنفيذ العقوبة فيهم، ومن الممكن القصاص منهم عندما يبدو منهم أقل شيء يريب؟

ولا تخرج معامل سك النقود في اليمن إلا العملة النحاسية[1] الصغيرة؛ لأنَّ الريالات الفضية الضخمة المنقوشة عليها صورة (ماريا ياتيريزا) إنما تستورد من مدينة تريستا مع عملة سنة ١٧٨٠ وعندما تصبح الحاجة ماسة إلى سك نقود جديدة يسلم الإمام إلى القائمين بأعمال دار سك النقود كمية من النحاس ويلزمهم بأن يحضروا له ما يوازي وزنها من العملة اليمنية المسماة (بالبقشة) وهي عملة قيمتها واحد على أربعين من الريال. ويرقب الإمام عملية الوزن باهتمام وعناية، وقد سمعه بعضهم وهو يعنِّف بعض مستخدميه لأنه اختلس بعض البقشات، ويهدده بأشد أنواع العقاب إذا لم يقم بردِّها.

ولست في حاجة إلى تكرار القول بأن هذه كلها حكايات تافهة، وبأن كل ما يذاع

---

(١) المعروف أن دار الضرب في اليمن لم تخرج جميع أنواع العملة الفضية والذهبية والريالات؛ إلا أن الريالات التي تخرجها قليلة.

من السفسطات والخزعبلات عن حياة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين وعن عاداته وأحواله الخاصة وشهواته، لا يمكن بحال أن ينقص من قيمة هذا الملك العظيم، ومن مقدرته الفريدة، ومن عبقرية ذلك الرجل الذي استرد لإمامة الزيدية مركزها المفقود ولليمن استقلاله الضائع، والذي تسيطر شخصيته القوية على الحياة السياسية والاجتماعية في (العربية السعيدة).

ومن الغريب أن صحافة البلاد العربية الأخرى التي أصبحت على اتصال مستمر بالمدنية الغربية والتي تتطور فيها الأفكار تطورًا سريعًا -يلذ لها أن تسخر في بعض الأحيان من إمام صنعاء ولو أنها تجد أن اليمن الذي يشبه في نظرها خرافات القرون الوسطى- جدير بكثير من الاعتبار والإجلال؛ لأنه لا يوجد في الوقت الحاضر بلد عربي آخر يستطيع أن يفخر بأنه يتمتع بدرجة تماثل درجته في الاستقلال، ولأنه وهو محتبس في عزلته التي تحمي إيمان الشعب وتصون عاداته وتقاليده الفاتنة يصر على رفض إقامة علاقات دبلوماسية أو قنصلية مع الدول الأخرى، أو قبول الممثلين الأجانب؛ وهو مع ذلك حر طليق من كل نفوذ سياسي أي كان، ومن أية تبعية اقتصادية مهما كانت ضآلتها.

وعندما ولد الإمام يحيى في سنة ١٨٦٩ كانت الإمامة الزيدية تجتاز محنة من أعظم المحن وتمر بها أسود أيامها؛ لأن الاستعمار التركي في اليمن كان قد انقضى ومضت عليه ٢٣٩ سنة بعد الهزيمة المنكرة التي أنزلها (المؤيد) بعساكر السلطان على أن الدولة اليمنية لم تهتم في تلك الفترة البعيدة المدى بتقوية مركزها أو تحسين أحوالها؛ لأنه قد تولى الحكم فيها بعد الأئمة الأوائل الذين كانوا رجالًا عقلاء بواسل -أئمة آخرون كانوا عجزة ضعاف النفوس وأشرارًا قساة القلوب؛ ولذلك سرعان ما ضعفت سلطتهم وسقطت هيبتهم، وهبّت في البلاد الثورات المختلفة التي أزعجتها

أيما إزعاج، حتى إن مدينة صنعاء نفسها قد انقسمت شيعًا وأحزابًا أخذت تقاتل بعضها بعضًا بعنف وفي غير هوادة، وكان بعضها يستنجد في بعض الأحيان على بعضها الآخر برجال القبائل الذين عاثوا في الأرض فسادًا، وهذا ما دعا أحد الأئمة إلى التنازل عن سلطته وعن الإمامة، كما أنه قد انتخب للإمامة بعض المحتالين والمشعوذين في بعض الأقاليم التي رفضت الخضوع لأوامر الحكومة المركزية.

بعد ذلك تولى عرش اليمن محمد بن يحيى الذي تربى ونشأ في الديار المصرية، وكان كثير الإعجاب بالأتراك ولذلك طلب إليهم العودة إلى اليمن، ولكن عندما دخل الألف والخمسمائة رجل الذين استحضرهم في صنعاء هاج الشعب اليمني واشتد غضبه؛ فارتكب الكثير من أعمال العنف وسالت الدماء أنهارًا وغزا العاصمة وهدمها على من فيها وقتل الإمام شرَّ قتلة، وبذلك سقطت البلاد في الفوضى وعمَّ الفساد، وعند ذلك قام شيخ من أفراد أسرة (الحيمي) ونصَّب نفسه سيدًا على صنعاء كما قام غيره من الزعماء والرؤساء بإنشاء حكومات مستقلة في مختلف الأقاليم واشتد الصراع بين رجال القبائل وذاع السلب والنهب وانتشرت المذابح في كل مكان، وفي عام ١٨٧١ نزلت حملة تركية جديدة في تهامة وسارت نحو العاصمة، وعندئذ قام وفد من أعيان البلاد ووجوهها لاستقبالها في (مناخة) وأعلن لها استسلام صنعاء وكافة بلاد الهضبة اليمنية، ولذلك انسحب الرؤساء الزيديون إلى الأقاليم الشمالية حيث احتفظوا لأنفسهم بمظهر بسيط من مظاهر السلطة على الأهالي، وكانت سلطة دينية بحتة، وبذلك استقر الاستعمار التركي في اليمن مرة ثانية.

في ذلك الوقت كان الإمام يحيى يبلغ من العمر سنتين اثنتين، وكان يعيش في حريم أبيه محمد حميد الدين، وعند وصول الترك حمل محمد أولاده ونساءه وثروته

على ظهور الإبل وانتقل بهم إلى (قفلة عذر) وكان ينتسب إلى أسرة شريفة من الأسر العريقة التي تفخر بانتسابها إلى فاطمة الزهراء -ابنة الرسول- والإمام علي بن أبي طالب.

وما وصل يحيى الصغير إلى السن التي تسمح له بترك أبهاء (الحريم) حتى تولى كبار العلماء ومشاهير القضاة والفقهاء أمر تعليمه وتثقيفه؛ فعلمه القضاة الشريعة الإسلامية، ولقنه العلماء العلوم والآداب، وكان أبوه يشرف بنفسه على تعليمه، كما كان يعلمه الفنون الحربية؛ فسرعان ما ظهرت مواهبه العظيمة وأُعجب الجميع بذكائه وعبقريته.

وقد جرت عادة الزيود حتى في عهد خضوع اليمن للاستعمار التركي على أن ينتخبوا ملوكهم، فالإمام هو قبل كل شيء الرئيس الديني الأعلى وهو أمير المؤمنين، وبين ألقابه العديدة لقب (المتوكل على الله). وفي سنة ١٨٩٠ انتخب الزيود في مدينة (صعده) على حدود العسير إمامَهم الجديد في شخص محمد حميد الدين، وأصبح ابنه الأكبر (يحيى) هو سيف الإسلام، وعندئذ بدأت الحركة التي كانت ترمي إلى استعادة سلطة الملوك الزيديين وتحرير البلاد من النير الأجنبي، فجمع محمد بعض الفرق العسكرية واخترق بهم حدود المراكز التركية في حجة وعمران، كما حاصر مدينة صنعاء. ولقد قامت على إثر تلك الحركة حركات أخرى مماثلة في أواخر القرن الماضي، وقد أتيحت الفرص في تلك الحركات للشاب (يحيى) لإظهار مواهبه العظيمة كقائد باسل وزعيم عظيم، حتى إنه عندما توفي والده في عام ١٩٠٤ اتجهت أنظار الزيود نحوه لتوليته الحكم في البلاد بعد أبيه؛ إذ كانت تتوافر فيه كافة المزايا وكل ما تتطلبه إمامة الزيديين من الشروط.

والإمامة -كما قلت فيما سبق- لا تورث، وكان اعتلاء العرش في أغلب الأحيان

برضاء أفراد الأسرة المالكة، ولو أنه لا يوجد نظام ملكي خاص بهذا الشأن، وعندما يخلو العرش يجتمع رؤساء الزيود ويأخذون في انتخاب الإمام. والشروط الواجب توافرها في الإمام أربعة عشر؛ أهمها أن يكون شريفًا منحدرًا من نسل فاطمة وعليٍّ، وأن يكون رجلًا تقيًا صادقًا في قوله، عادلًا مستقيمًا ذكيًا، ذا نفس أبيَّة، له نفوذ وسيطرة على الشعب، وأن يكون قد أثبت أنه محارب كفء باسل وحاكم حازم يقظ.

ولكن هذه الانتخابات ككل انتخابات أخرى في كل زمان ومكان تجرى غالبًا في أحوال شاذة مضطربة، وفي تاريخ اليمن حادث فريد وهو أن أحد المطالبين بالعرش وهو المهدي عباس[1] الذي ظهر لمجلس الرؤساء المجتمعين لانتخاب الإمام أنه لا تتوافر فيه إلا سبعة شروط من الأربعة عشر الواجب توافرها في الإمام، قال للمجتمعين: أمَّا عن الشروط الأخرى فإن في استطاعتي أن أقدم لكم ما يغني عنها وهو هذا. وأخرجَ سيفه من غمده... وعندئذ تمَّ انتخابه إمامًا. ولا يرى القانون الزيدي بأسًا من الحصول على الإمامة (بحدِّ السيف).

ارتقى يحيى عرش اليمن بدون جلبة ولا ضوضاء وبموافقة إجماعية، وكان أول عمل قام به هو أن شهر الحرب على الأتراك وهاجمهم بعساكره وأخذ في الزحف حتى بلغ أسوار مدينة صنعاء، ولما علم السلطان بذلك جرَّد بسرعة جيشًا كبيرًا وأرسله لمحاربته وتأديبه؛ ولكن العساكر الزيديين هاجموه في أثناء سيره في الجبال وأسروا فرقة التموين بأكملها. وهكذا أخليت صنعاء ودخلها (يحيى) بجنوده دخول الفاتحين؛ ولكنه طُرد منها مرة أخرى على يد حملة تركية ثانية لم تلبث أن اضطرت لإخلاء المدينة بعد قليل من الزمن بسبب نقص الأقوات فيها.

---

(١) المفهوم أن هذا حدث لأحد الأئمة الذين خلفوا هذا الإمام.

وقد نجح الإمام يحيى في هذه الفرصة في الاستيلاء على كافة أنحاء الهضبة المتوسطة حتى مدينة (إب) ولكن كانت قد وصلت حملة تركية جديدة اشتبكت معها على مقربة من (متناخ) في معركة عنيفة دامت ثلاثة أيام وثلاث ليال، وأخيرًا انتصرت جيوش السلطان التي كانت مسلحة تسليحًا قويًّا ومدربة أحسن تدريب - على الجيوش اليمنية التي كانت تتألف من رجال قبائل ومن بدو حفاة الأقدام كانوا لا يزالون يحتفظون بعاداتهم القديمة وهي أن يغرسوا حول عمائمهم فتائل بنادقهم القديمة. وكذلك انسحب الإمام يحيى إلى قفلة عذر، على أن هذه الهزيمة لم تفت في عضده ولم توهن عزيمته؛ إذ إنه أخذ يحارب الغزاة بصبرٍ وعنادٍ وأوقع بهم خسائر فادحة، وعلى الأخص عندما وجَّهوا حملات تأديبية على قبائل الشمال، وحاول الترك أن يقيموا بدلًا منه إمامًا زيديًّا آخر ولكنهم لم ينجحوا. وأخيرًا اضطر الباب العالي إلى طلب الصلح مع الإمام وأمضى معه اتفاقًا في سنة ١٩١٢ تركت للإدارة التركية بمقتضاه مدينة صنعاء ومعظم الأراضي الساحلية. أمَّا المناطق الأخرى -أي الأقاليم الزيدية- فإنها تُركت تحت إدارة الإمام وسلطته الدينية والإدارية؛ وعندئذ استبدل القانون التركي الذي كان معمولًا به في البلاد بالشريعة الإسلامية، ووكل بإدارة القضاء موظفون كان يعينهم الإمام.

أمَّا الإمام يحيى فإنه بعد أن ضمن إعانة سنوية لشخصه ولكبار موظفيه من خزانة الدولة العثمانية اتخذ لنفسه مقرًّا في خمر[1] حيث أخذ يباشر سلطته وينشر نفوذه ويبسط فيه في الأراضي التي خصصت له بمقتضى الاتفاق وفي العاصمة نفسها؛ بينما كان عيونه وجواسيسه يتوغلون في محميات عدن وفي حضرموت، ومن ذلك الوقت أصبح الإمام يحيى هو الملك الحقيقي في البلاد.

---

(١) خمر مدينة في شمال صنعاء على نحو ستين كيلومترًا منها.

وفي أثناء الحرب العظمى الأولى رفض الإمام يحيى بشمم وإباء كلَّ محالفة اقترحها عليه الإنجليز، ورغمًا من أنه حارب الأتراك لضمان استقلال بلاده إلا أنه آثر أن تقطع رقبته ورقاب أولاده على أن يحالف الكفار. وعندما وضعت تلك الحرب أوزارها دخل صنعاء دون أن يجد أية مشقة أو أية مقاومة من أحد.

***

وهناك من يقولون في الوقت الحاضر بأن الإمام يحيى لا يفكر إلا في جمع الثروة، وهذا ليس من الحق في شيء؛ لأنَّ إرادته القوية وبصيرته النافذة تحيط بكل شيء في اليمن، فهو يهتم بكل إنسان وبكل شيء، ويقوم بأهم أعمال الدولة وبما ينشأ من خلاف بين القبائل حول ملكية بعير أو ري حقل من حقول الأذرة.

ويتحدث الكثيرون عن كنوز الإمام وما فيها من ذهب وفضة كما لو كانوا يتحدثون عن كنوز سليمان ويقولون: إنها مدفونة في خزائن سرية مسحورة تحت الأرض، ويسهر على حراستها حراس مخلصون ورجال أقوياء أشداء، وأنها مخبوءة في بطون الجبال في كهوف مغلقة بجلاميد من الصخور الهائلة. ويفيض خيال اليمنيين في هذه الموضوعات بالكثير من الأحاديث والأوصاف، ومما لا شك فيه أن الإمام يحيى يمتلك ثروة لا بأس بها، ولكن ترى لمن يوفر هذه الثروة؟ هل يوفرها لنفسه أو لبلاده؟

إنَّ اليمن لم يحصل على كل الأراضي التي كانت له في أيام عزه ومجده عندما كانت تمتد حدوده إلى العسير شمالًا وإلى عدن وحضرموت في الجنوب؛ ولكن ترى أي المشروعات يجول بخاطر الإمام يحيى؟

ليس في استطاعة مخلوق أن يقول شيئًا في ذلك؛ لأنَّ كل شيء يدعو الظن بأنه

يهتم في الوقت الحاضر بأن يضمن لليمن الهدوء والاستقرار مدة طويلة، ولكن العرب يشبهون الأنهار التي تجري في بلادهم والتي تبقى أجوافها جافة عدة سنين ثم تمتلئ على حين غفلة بالمياه القوية الجارفة التي تأخذ مجراها بعنف وشدة وتكتسح كل ما في طريقها!



٦
جمعة رمضان

{شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه}.

لا يسع الإنسان إلا أن يعجب بالحكمة البالغة التي وضعتها الشريعة الإسلامية إذ فرضت على المسلمين أصح العادات في الحياة التي هم في أشد الحاجة إليها؛ فإن الصلاة التي فرضت عليهم إقامتها خمس مرات في اليوم ليست هي محض عبادة بل هي أيضًا تمرين جسدي عظيم الفائدة هو أشبه شيء بالتمرينات الرياضية السويدية، وهي وقاية وجُنَّة لشعب يميل بطبيعته إلى الركود وعدم الحركة بسبب حرارة البلاد التي يعيش فيها، فضلًا عن أن فرائض الوضوء قبل الصلاة والتطهر، واختيار الأطعمة، وقواعد النكاح، وتحريم المشروبات الروحية كلها أشياء جديرة بالإعجاب والاحترام، ولو أنه من الصعب إقناع الغربي بسهولة بفكرة صوم رمضان المفروض على المسلمين والذي يقلب مدة شهر كامل نظام الحياة الإسلامية رأسًا على عقب، ويقلل إلى أقصى الحدود الحركة والنشاط في العمل؛ إذ يصوم المسلمون من انبثاق الفجر حتى غروب الشمس ويمتنعون عن المأكل والمشرب، وفيهم من المتمسكين من يتأخرون في الإفطار بعض الوقت عن الغروب للتمكين.

على أنهم منذ أن يرخي الليل سدوله حتى اللحظة التي يتبين فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود يباح لهم كل شيء مما امتنع عليهم بالنهار، وقد يعجب الإنسان لأول وهلة لمثل هذا الصيام، وقد لا يستطيع أن يفهم الفوائد التي قد تعود على

المسلم منه، وقد اعتاد اليمنيون أن يناموا بعد صلاة الفجر وألا يستيقظوا من نومهم إلا في ساعات القيلولة، وأما في أثناء الليل فيأكلون كما يشتهون ويدخنون التبغ في النرجيلات ويمضغون أوراق (القات).

وفي كل يوم من أيام شهر رمضان تعلن طلقات مدافع (القصر) للشعب اليمني بداية الصوم ونهايته، وحتى في قلب الليل في السَّحر تطلق هذه المدافع لتدعو المسلمين لتناول الوجبة الأخيرة (السحور) حتى لا يفاجئهم نور الفجر وفي فمهم طعام أو شراب. وأن تدخل (المدفعية) في أهم طقوس رمضان ليفهمنا الطبيعة الحتمية التي يفرضها على اليمنيين ذلك النظام الذي يوجب قيام الليل وصيام النهار الذي توقف أو تكاد توقف فيه كل الأشغال العامة ويفرض فيه الركود الرسمي على كل الأعمال.

* * *

أمَّا يوم الجمعة الأخيرة من رمضان فيحتفل به احتفالًا عظيمًا منقطع النظير، ففي ذلك اليوم يخرج الإمام في موكب فخم إلى المسجد الكبير لأداء الصلاة، وعندئذ تغلق أبواب المدينة كلها وقد جرت العادة بذلك من عهد بعيد؛ إذ حدث مرة أن انتهز بعض رجال القبائل الثائرة فرصة هذه الصلاة الجامعة ودخلوا صنعاء وانسلَّ نفرٌ منهم إلى المسجد وقتلوا الإمام في أثناء الصلاة.

والمسجد الكبير الذي يؤدي فيه الإمام هذه الصلاة في العاصمة اليمانية هو

مسجد قديم العهد يقال: إنه شيد قبل ميلاد النبي ليكون كنيسة للمسيحيين[١].

وربما كانت هذه الكنيسة قد خصصت للأسقف المبعوث من قبل بطريرك الإسكندرية لنشر تعاليم الإنجيل في ربوع العربية السعيدة. ولهذا المسجد صحن كبير مرصوف بالحجارة السوداء ومحوط بصفوف متناسقة من الأعمدة العالية ذات الزخارف الأنيقة يجتمع فيه الكافة والخاصة على قدم المساواة للصلاة.

والسادة في اليمن جمهرة كبيرة قوية، وكلهم من نسل الرسول، وبيدهم كل السلطات ويلبسون فوق رءوسهم عمائم بيضاء كبيرة مستديرة الشكل. أما الإمام وأنجاله فهم وحدهم الذين لهم الحق في أن يتركوا طرفًا من الشال الكبير الذي يلفون به رءوسهم يتدلى خلف ظهورهم.

وعندما تخرج العربة التي يركبها المليك والتي يجرها جوادان مطهمان من جياد (الجوف) العربية الأصيلة -من فناء (المقام) للتوجه إلى المسجد الجامع تسمع أصوات حادة صاخبة من البوري تجيب عليها أصوات أخرى تماثلها من رجال الحرس الذين يقفون فوق أبراج سور المدينة ويحف بالعربة كبار الموظفين وذوو المقامات وعلية القوم على جيادهم وعدد كبير من الضباط والعساكر والسياس، ويقودها حوذيان يلبس كل منهما عمامة حمراء، كما يقف رجلان مسلحان من رجال الحرس فوق المقعد الخلفي منها، وفي داخلها يجلس اثنان من الأمراء يرتديان أفخم الملابس في مواجهة الإمام الذي يتصدر شخصه الكريم في وسط المقعد.

---

(١) ليس هذا بصحيح؛ وإنما أسس جامع صنعاء هذا في عهد معاذ بن جبل العتبي الشهير، ثم وسع في أيام الوليد ومن بعده؛ أما الكنيسة التي أشار إليها فلعلها كنيسة القليس، وهي لا تزال معروفة في صنعاء بآثارها في الجانب الجنوبي الشرقي من المدينة.

ولباس الإمام الرسمي فيه بهجة وزينة تبهر الأنظار؛ فالذهب يتوقد فوق زرقة قميصه، وعلى أكمامه الفضفاضة، وفوق عمامته الخضراء، وحزامه الزبرجدي، ويزدهر فوق الأسلاك الرفيعة التي توشى بها أزراره، ويسطع تحت الأحجار الكريمة التي تمتلئ بها قبضة خنجره. ويتقدم الموكب رجال (العكفه) حرس الملك المخلصون وهم بدو نحاف الأبدان أقوياء، كأن جسومهم قد قدت من الجلود لهم ضفائر طويلة تتدلى من رءوسهم، ويرتدون مآزر (فوط) بنفسجية اللون مصبوغة بالنيلة التي يؤثر لونها الأزرق على الجلد ويقي من الأمراض، وهم يمسكون بعضهم بأيدي البعض ويسيرون بخطى راقصة سريعة وينشدون أناشيدهم المشجية اللطيفة في مدح سيدهم الإمام والإشادة بذكره.

وتزدحم الجماهير حول هؤلاء وهؤلاء ويتكاثر عددها حتى تصير كأنها البحر الزاخر، وهي خليط من كل شكل ومن كل لون ومن كل صنف؛ من شيب وشبان، وبنين وبنات، وأطفال تملأ أنفاسهم الجو حرارة وتنطلق من أفواههم صيحات عالية هنا وهناك.

وقبيل خروج الملك تبدو الجهات المحيطة بالمقام في منظر فتان يخلب الألباب؛ فالموظفون والكتاب العموميون يهرولون زرافات ووحدانًا ويتجمعون حيث يجلسون القرفصاء فوق حائط السور، ويجتمع حولهم كل من له حاجة وكل صاحب مظلمة يريد عرضها على الإمام، فتكتب العرائض والاسترحامات على قصاصات من الورق، ويرفع بعض المتظلمين الصوت عاليًا بظلاماتهم وشكاواهم وهم يوجهون نظراتهم حولهم ذات اليمين وذات الشمال كما لو كانوا يريدون التأكد من عطف الشعب على ظلامتهم قبل أن ينالوا العدالة من المليك، ويصيح أحد الجنود قائلًا: (لقد مضت ثلاثة أشهر لم يدفع لي مرتبي فهل هناك ظلم أشد من هذا؟ نرجو

يا مولانا أن تعمل على محو هذا العار). وفي مكان آخر يقف جمهور من رجال القبائل كلهم يرتدون ملابس من جلود الأغنام وقد جاءوا من بلادهم البعيدة يلتمسون تدخل المليك لإنصافهم من عامل قريتهم الذي يسرف في استعمال سلطته، وفي مكان آخر تقف امرأة محجبة تهمس في أُذن الكاتب بشكواها السرية، إلى غير ذلك مما لا يحصيه عدٌّ.

بعد ذلك يخرج الموكب الملكي من (المقام) فيختلط المتظلمون بعضهم ببعض وهم يصيحون ويصرخون في وجوه عساكر الحرس والفرسان، ولما يقترب هؤلاء منهم يقذفون بأوراقهم التي تتضمن شكاياتهم والتي يلتقطها الإمام بيديه بحذق غريب! وهي متناثرة في الهواء!

ويعود الموكب إلى التآلف ثانية بعد حفلة الجامع للعودة إلى (المقام) حيث يجرى الاستعراض العسكري العتيد تحت جدرانه وتدخل العربة الملكية بين جناحين من الجماهير حتى تقف في وسط فنائه وينزل منها (الإمام) بمساعدة الأمراء، ويجتمع حوله (السادة) الذي ينحنون أمامه لتقبيل ركبتيه، ويقف إلى جانب (السادة) أنجال الإمام الصغار وأولاد الأمراء وكتلة كبيرة من الصبية الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والثانية عشر والذين بمجرد أن يبتعد الإمام يسرعون إلى تسلق عربته ويتدافعون بالمناكب للجلوس في أوسع مكان فيها، وهو الذي يجلس فيه الحوذيان.

ولقد أتيح لي أن أحضر حفلة العرض العسكري الذي يجرى آخر يوم جمعة من رمضان، وأن أشهد هذا العرض من مقصف صغير في دار الحكومة لا يبعد كثيرًا عن المقصف الذي يجلس فيه الإمام على مرأى من شعبه فوق مقعد أخضر اللون قليل الارتفاع نُقشت على جانبيه المصنوعين من خشب التاك آيات من القرآن الكريم، وأول شيء رأيناه في هذا العرض هو فرقة الموسيقى العسكرية، ومما لاحظناه أن كل

الآلات التي في أيدي رجالها إن هي إلا طبول وأبواق ولا شيء غير ذلك. ويدير هذه الفرقة شيخ تركي متقدم في السن تدين له اليمن بنشيدها الوطني المفرح. وعندما تصطف فرقة الموسيقى أمام شرفة الإمام على الجانب الآخر من الطريق تتقدم فرقة من الجند تحمل العلم اليمني الأحمر اللون الذي رسم عليه سيف وخمس نجوم بيضاء، ثم تمر فرقة بعد أخرى في صفوف متتالية، ينتظم في كل صف منها أربعة من الجنود، ويسير في المقدمة المشاة حاملين بنادقهم على أكتافهم ومن خلفهم فرقة مدافع المتراليوزات، وفي إثرها المدفعية المكونة من بطارية ميدان ومن قسم من بطارية جبلية تجرها البغال، ويسبق هؤلاء الجنود ضباطهم ومعظمهم من الضباط أو صف الضباط الأتراك، وعندما كانت فرق الجيش تمر أمام الإمام كانت تؤدي له التحية على الطريقة الأوربية.

ومن الجرأة والمبالغة الجزم بأن الجيش اليمني يملك آلات حربية فنية ذات قيمة تذكر، وقد حدث في وقت ما أن نشرت الصحافة الأوربية أخبارًا جمعتها من مصادر عربية عن استعدادات حربية هائلة في اليمن ولكن ليس هناك ما يبرر ما قيل من هذا القبيل، فإن اقتراع الجنود يسير في اليمن على النظام المعتاد[1] كما أن المصنع الذي أعدته الحكومة لصناعة خرطوش البنادق التي هي الصناعة الحربية الوحيدة لم يزد في أعماله البسيطة البطيئة، وكل ما شوهد في الأوقات الأخيرة من الآلات الحربية الواردة إلى اليمن والتي أفرغت من السفن في ثغر الحديدة لا يزيد على العشرين أو الثلاثين دبابة من المحتمل كثيرًا أن يهمل استعمالها في أقرب وقت نظرًا لحالات الطرق اليمنية السيئة ولقلة مهارة السائقين الوطنيين، وليس لدينا

---

(١) يلاحظ هنا أن الحكومة اليمنية زادت جيشها بعد هذا التاريخ وجعلت التجنيد إجباريًا فأنشأت جيش الدفاع الوطني.

إلا القليل إذا ما أردنا التحدث عن الفرق الميكانية في الجيش اليمني.

أمَّا الطيران فقد أصبح اليوم لا وجود له في اليمن ومن عدة سنوات أرسل الإمام يحيى إلى إيطاليا بعض الشبان اليمنيين لدراسة فن الطيران في معاهدها كما وصلت طيارتان إلى صنعاء ولكن منذ أن سقطت إحدى الطيارات الألمانية على إحدى الهضبات في ضواحي العاصمة في أثناء حفلة طيران استعراضية لم يشأ الإمام أن يسمع كلمة واحدة من أحد عن الطيران في بلاده، واستخدم طياريه الذين تعلموا هذا الفن في إيطاليا في العمل في إدارة البريد وفي بعض مصالح الحكومة الأخرى.

وليس الجيش اليمني كثير العدد؛ إذ يتكون من عشر فرق تضم كل منها ألفًا من الجنود، وهؤلاء هم الذين يتكون منهم الجيش النظامي على أنه في وقت الحاجة يستدعي إلى حمل السلاح جيش احتياطي آخر يطلق عليه اسم (الجيش البراني) وهو الجيش الغير النظامي المكون من رجال القبائل؛ إذ إن كل قبيلة ملزمة بتقديم عدد من الجنود يتناسب مع عدد رجالها، ونظام التجنيد في اليمن يقوم على التطوع في صفوف الجيش على أنه كما هو معلوم -تطوع لمدى الحياة، وإذا أراد جندي ترك الجيش وجب عليه أن يدفع للحكومة مبلغًا من المال يتراوح بين خمسين وثمانين من الريالات أو أن يأتي في مكانه بمن يخلفه. أمَّا المرتب الذي يتقاضاه الجندي فهو ست ريالات وخمسة وعشرون كيلو جرامًا من الأذرة في الشهر الواحد مضافًا إليه أربعة أرغفة في كل يوم، وهذا المرتب ليس بالكثير ولكنه على كل حال لا بأس به؛ لأنَّ العمال المدنيين لا يكتسبون أكثر منه، وأما الموظفون فإنهم يتقاضون من الدولة رواتب صغيرة لأنهم يستطيعون تدبير حياتهم بأية طريقة!!

ويتسلم الجندي اليمني من حكومته البندقية والحزام ولا شيء غير ذلك؛ أما الملابس فيجب أن يحصل عليها من راتبه الضئيل وعلى ما يريد ويشتهي، ولا يمتاز

الجنود اليمنيون عن[1] الأهالي المدنيين بشيء إلا بالبندقية والحزام، على أن الجندي لكي تكون له هذه الصفة يجب على الأقل أن تكون له سترة يلبسها، وعلى ألا تكون سترة كيفما اتفق، بل لا بد أن تكون من تلك السترات ذات النظر الخلاب والتي تكون لها أزرار ذهبية[2].

أمَّا الموسيقى العسكرية في هذه المدينة التي تمنع فيها كل موسيقى أخرى فإنها تبدو أنها لا تتعب ولا تمل وهي تعزف باستمرار تحت إدارة معلم متقدم في السن يبقى دائمًا فوق بغلته؛ نظرًا لضعفه وعدم قدرته على المسير أو الوقوف على قدميه، وهذه الموسيقى ما هي إلا مارشات لا يعلم إلا الله من أين أخذت ولا كيف أمكن توقيعها وعزفها بهذه الآلات الموسيقية المحدودة التي في متناول أيدي الفرقة اليمنية. وقد كنا نسمع بين آن وآخر نبرات النشيد اليمني السهلة المرحة التي تشبه إحدى الأغاني الشعبية.

وتكريمًا (لضيف الإمام) ولإدخال السرور على نفسه ها هي ذي الفرقة اليمنية الموسيقية تعزف بعض الأناشيد الإيطالية، بينما تمر آخر فرقة من فوق الجيش أمامنا؛ وإذ ذاك يكون قد اجتمع حول مقصف الإمام جمع كبير من الأعيان والوزراء والموظفين، ويزدحم كل هؤلاء وهؤلاء في السلاملك الذي تجرى فيه الاحتفالات.

---

(١) قد جعل للجنود ملبس خاص موحد.

(٢) كان بعض ما قيل قبل توحيد ملابس الجنود.

٧

جلسة طريفة مع الإمام

من الأشياء التي ينصح بها للأوروبي عند وصوله إلى صنعاء أن يدع قبعته جانبًا وأن يحصل لنفسه على طربوش من صوف الغنم الأسود؛ لأن المسلمين في هذه البلاد لا يضايقهم شيء أكثر من منظر غطاء للرأس لا يسمح لجبينهم بلمس الأرض وينم على الكافر الذي لا يؤدي الصلاة الإسلامية ولا يقيم لها وزنًا.

وقد احتل الطربوش المكان الأول في البلاد الإسلامية وتفوق على العمائم في العهد العثماني ولا يزال يحتفظ بمركزه للآن، ولو أنه سقط من شاهق مجده في تركيا وكان له أسوأ مصير في إيران. ولكن لم يا ترى تلك الأهمية العظمى التي تعطي للقبعة في العالم العصري لا بصفتها ظاهرة من ظواهر الأناقة والجمال أو نوعًا من الأزياء، بل بصفته رمزًا سياسيًّا أو دينيًّا، فإن الثورة البلشفية وجدت رمزها عندما ترك الرفيق لينين قبعته البورجوازية في عربة القطار المصفح الذي نقله إلى روسيا ووضع فوق رأسه قلنسوة بسيطة من تلك القلنسوات التي يلبسها العمال؟

لهذا حصلت على طربوش جميل لبسته فوق رأسي عندما ذهبت قبيل الساعة العاشرة مساء إلى (القصر) الذي يسكنه الإمام –بصحبة اثنين من الجنود كانا ينيران بمصباحيهما الطريق أمامي، ولم أكن بالطبع أنا الذي تخيرت هذه الساعة المتأخرة لزيارة عظيمة مثل هذه الزيارة؛ بل إن الوزير راغب بك الذي فضلًا عن قيامه بأعباء وزارة الخارجية اليمنية يقوم بلباقة ومهارة بمهمة رئيس البروتوكول –كان قد أرسل

لي بطاقة فيها رسالة قصيرة هذا نصها: (بسبب حلول شهر رمضان سيستقبلكم جلالة الإمام الليلة في قصره في الساعة العاشرة).

وربما كان اختيار هذه الساعة المتأخرة هو السبب في الإبقاء على آلتي الفوتوغرافية التي لها قيمة عظيمة في هذا البلد الذي لم يعرف عن مناظره في الخارج إلا الشيء القليل النادر، وأحسب لو أني ذهبت للتشرف بالمثول بين يدي المليك في أية ساعة من ساعات النهار وحملت معي آلتي الفوتوغرافية لالتقط بها بعض الصور في الوقت المناسب لكان الإمام لاحظ ذلك ولبادرني بقوله: (ما أجمل هذه الآلة! أرني إيَّاها) وما هي إلا أن يتناولها بيده حتى يلقي بها إلى الأرض فتصبح هشيمًا[1]. وقد حدث هذا لبعض الزوار؛ لأن العقيدة الإسلامية تُحرِّم تصوير الأشكال الآدمية؛ على أن كثيرين من المسلمين أصبحوا لا يقيمون لذلك وزنًا، ويبدو السرور على وجوههم عندما يقفون أمام إحدى العدسات، ولكن هذا ليس رأي الجميع فإنه حتى في الشوارع والطرقات يجب على الفوتوغرافي أن يستعمل الحكمة والحذر وأن يتذرع بالصبر والحزم؛ لأنه قد يلتقي بأحد المتعصبين المتنطعين ويصطدم معه وقد جرؤ مرة أحد الروسيين على الطواف في أحد ميادين صنعاء وهو يدير يد إحدى آلات التصوير السينمائية، فلم يلبث أن هاجمته الجماهير واعتدت عليه اعتداءً شنيعًا، وما كان أعظم سرور اليمنيين لو أن هذه الآلة التقطت صور لمليكهم المحبوب بدلًا من تلك الصورة التي عملت في غيابه بالريشة من الذاكرة والتي جاءت بعيدة عن شبهه كل البعد، ولعمري إنها لجريمة لا تغتفر؛ لأن الإمام يحيى هو أحد الرجال الأفذاذ العظيمي الأهمية الموجودين في قيد الحياة؛ إذ إنه رئيس دولة مستقلة يعيش محتبسًا بين حدود مملكته، كما أنه الرئيس الأعلى لإحدى الطوائف الدينية الكبيرة

---

(١) المعلوم أن جلالة الإمام يحيى لا يرى بأسًا من أخذ الصور الفوتوغرافية؛ ولكنه لا يسمح لأحد بأن يأخذ لجلالته صورة، وقد يكون المؤلف قد استقى هذه المعلومات التي لا أصل لها من مصادر غير موثوق بها.

وأحد الدكتاتوريين القلائل الموجودين على ظهر البسيطة في هذه الأيام لأنَّ كل السلطات في بلاده متركزة بين يديه، وما وزراؤه إلا موظفون حاذقون يخلصون له كل الإخلاص ولا يجرءون حتى في أبسط الأمور وأقلها أهمية على أن يتحملوا أية تبعة أو أن يبرموا أمرًا قبل أن يتسلموا أوامره وتعليماته فيه.

والإمام يحيى في نظر رعاياه شخصية مقدسة فهم يأتون إليه في بعض الأحيان من أماكن بعيدة في قوافل تسير أيامًا وليال وهم من البدو المرضى للتبرك به ولالتماس الشفاء من أمراضهم منه، ولكي يمد يده الكريمة ويمسح بها على رءوسهم وأكتافهم كما كان يحدث في فرنسا وإنجلترا من قرون بعيدة عندما كان يقال: إذا لمسك الملك شفاك الله! ويكتب له الزيديون من أقاصي الهند يطلبون إليه أن ينادي بنفسه خليفة للمسلمين، وقد كثرت أحاديث الناس في أوربا عن (يحيى بن محمد) كما لو كانوا يتحدثون عن شخصية غامضة محوطة بالأسرار وهذا خطأ فاحش، ولكنه ليس خطأنا نحن الأوربيين بل هو خطؤه هو لا يد لأحد غيره فيه. حقيقة أن أئمة اليمن السابقين كانوا يعيشون في برج من العاج بعيدين عن أنظار الشعب وفي عزلة لا يمكن التغلغل فيها أو النفاذ منها كانت تجعلهم لغزًا من الألغاز، ولقد كانت هذه العزلة التي كان من شأنها ارتفاع مقامهم وعلو مركزهم وزيادة هيبتهم في نظر الجماهير مطابقة للتقاليد القديمة الموروثة التي يرجع أصلها إلى ملوك سبأ الذين تقول الأساطير عنهم: إنهم ما كانوا يستطيعون الخروج من مساكنهم الفخمة الأنيقة مخافة أن ترجمهم الجماهير بالحجارة!!

وقد بقي والد الإمام يحيى متمسكًا بهذه العادة محترمًا لهذه التقاليد الغريبة التي جرى عليها ملوك اليمن؛ ولكن الإمام يحيى على عكس أبيه وأجداده عمل دائمًا على أن يكون على صلة دائمة بشعبه، ويمكن القول بأنه يعيش على مشهد من الشعب

فإذا ما قرر يومًا بيع إحدى جواريه مثلًا، أو إذا بدأت إحدى ركبتيه تشكو من النقرس فلا تمضي نصف ساعة حتى يكون قد عرف ذلك كل أهالي صنعاء.

ويجلس الإمام يحيى في فصل الصيف في أحد أفنية (المقام) تحت ظل شجرة كبيرة يحيط به رجال دولته وجنوده ويعقد جلسة يقصدها البدو من الأقاليم الشرقية البعيدة لعرض شكاواهم ومظلماتهم، وعندما يصلون إلى أبواب قصره ينحرون شاة أو عنزًا، وهكذا يجددون تلك الطقوس اليمنية القديمة. على أن هذه (الضحية) أصبحت لا ضرورة لها لأنه من الممكن أن يدخل أي إنسان متى شاء ولا تثريب عليه والإمام يستمع إلى الجميع ويجيب على كل متحدث بإجابات حكيمة متزنة تدل على رجاحة العقل ويتقبلها الجميع بنفس مطمئنة راضية، والإمام رجل مثقف واسع الإطلاع ومكتبته الفسيحة غنية بما حوته من كتب قديمة قيمة، ويقال: إنه يهتم كثيرًا بعلم الفلك ويميل إلى قرض الشعر.

أمّا مسكنه فهو قصر عظيم جدير بملك عظيم مثله، ويطلق عليه اسم (المقام) ولا ينقص (المقام) شيء من الزخرف أو الأبهة والوجاهة اللائقة بمقر ملك شرقي غني وهو يتجلى في وسط سور كبير تكاد تتكون من جدرانه مجموعة تذكارية وسط أحياء المدينة؛ إذ كان الأئمة السابقون قد أقاموا في مكانه حصنًا منيعًا؛ ولكن رجال القبائل أتت عليه وهدمته وبنى الأتراك على أطلاله أحد المستشفيات، ولما عاد الإمام يحيى إلى عاصمة بلاده ودخلها دخول الفاتحين أمر بهدم البناء الجديد لكي يقيم مكانه (دار السعادة) وهو قصر واسع الرحاب، فسيح الجنبات، حسن التنسيق، مزخرف بالزخارف والتخاريم البيضاء الناصعة، وأقام إلى جانبه قصرًا آخر أعظم منه، له شرفات واسعة ومشربيات أنيقة تحيط بنوافذه، أطلق عليه اسم (دار الشكر) توجد فيه اليوم مساكن المليك الخاصة كما بنى فيه أيضًا مسجدًا جميلًا به سبع قباب

بيضاء ومحلى بأعمدة رشيقة عليها نقوش وزخارف بديعة جمعت كلها من أطلال مدينة (مأرب) كما شيد أيضًا برجًا كبيرًا خصص لضيافة الأمراء والزوار الذين يمرون بالعاصمة وعدة ثكنات للحرس اليمني وبعض المكاتب.

(والمقام) أشبه شيء بقصر (الكرملين) الروسي؛ إذ توجد فيه قصور ومعابد وأبنية من شتى الأشكال ولشتى المخصصات، وبه حديقة واسعة فيحاء تنبت فيها كل النباتات التي اشتهرت بها العربية السعيدة من لوز وقات وجوز وبرتقال ونخيل وأعناب وزهور ورياحين، كما يوجد فيه أيضًا (المفرج) الملكي الصيفي الحسن التنسيق.

ويرى الإنسان في زاوية من زوايا الحديقة -حيث يقوم فوق الجدران برج هائل بالغ الضخامة متناهي القصر- سارية محطة (الراديو) التي هي الشيء الوحيد الذي يجعل اليمن على اتصال بالعالم الخارجي، ويرفع رجال القبائل الذين يمرون أمامها أعينهم نحوها دون أن يفهموا شيئًا عنها ودون أن يسألوا عن سبب وجودها، ولكنهم يقفون في المساء مبهوتين للتطلع لمصابيح باب (المقام) التي توقد من تلقاء نفسها ويظنون أنه ربما كان ذلك من سحر الجن الذين يخضعون لأمر (المتوكل على الله). والقصر الملكي هو المبنى اليمني الوحيد الذي يضاء بالنور الكهربائي وقد كان فيه في عهد من العهود جهاز تليفوني لا أعرف على وجه التحديد من الذي أهداه لجلالة الإمام؛ ولكن يحيى بن محمد الذي يحب دائمًا أن ينظر في عيني محدثه ليستشف ما وراءهما سرعان ما ضاق ذرعًا بتلك اللعبة السخيفة الطائشة!

ولا يحتقر الإمام مبتكرات المدنية الآلية؛ ولو أنه لا يرى فيها فائدة مادية. ولما احتلت جنوده في أواخر أيام الحرب العالمية الأخيرة مدينة تعز كانت هناك بين غنائم الحرب أربع سيارات فخمة، وقد تقرر إهداء واحدة منها للإمام يحيى، وهكذا

ظهرت السيارة الأولى في طرقات صنعاء، وبعد أن فحصها الإمام بدهشة كبيرة وعناية عظيمة أمر بإيداعها في أحد المخازن. وقد حدث أن نزل الإمام في أحد الأيام على رغبات راغب بك وزير خارجيته وقرر استعمال هذه السيارة للذهاب بها إلى المسجد، ولما تقدمت السيارة الجميلة بسائقها نحو باب (المقام) سرعان ما تجمعت حولها الجماهير، ولكن عندما ظهر المليك وهمَّ بركوبها خرج (السيد قاسم) من وسط الجماهير واتجه نحوها وفي إثره جماعة من المتعصبين، وبهامته الطويلة الممتلئة وعيونه التي ينبعث النور والشرر منها قام شيخ المسجد ورئيس سدنته ووجَّه كلامه إلى الإمام بصوت أجش قائلًا: أتجرؤ يا إمام الزيديين على ركوب هذه الآلة الجهنمية الممقوتة؟

ولما كان الإمام يحيى لا يرغب في إيجاد خلاف ذي صبغة دينية فإنه أجاب الرجل بقوله: أنا؟! حتى ولا أفكر في ذلك.... ثم وضع سيفه الذهبي على رقبته وهو ممسك به بيديه كالميزان على الطريقة البدوية وتوجه على قدميه نحو المسجد[1].

أمَّا نوافذ الدور الأول المزخرفة بالزجاج الملون وبألواح الرخام الرقيقة فقد كانت كلها مضاءة وكانت تكسب (المقام) منظر مسرح من مسارح (الأوبريت) ولقد دخلنا إلى البهو مخترقين الفناء الذي كان يستريح فيه رجال الحرس، وكان هناك أيضًا عساكر آخرون حفاة الأقدام مسلحون يجلسون القرفصاء حول نرجيلة فخمة يدخنون منها كل بدوره، فإذا ما انتهى الواحد منهم أمسك الآخر بمبسمها ووضعه في فمه بطريقة منتظمة بحيث كان الدخان المتصاعد منها يجلجل المياه التي في قاعها.

ولقد كان السلم مزدحمًا بكثير من الناس كما كانت عتبة البهو مملوءة بمجموعة

(١) هذه الحكاية غير معروفة في اليمن ولا يعلم مصدرها.

طريفة من الأحذية المختلفة الألوان والأشكال والمقاسات وضعت في غير نظام، فكان فيها أحذية من الصنف الأوربي وأحذية هندية وأخرى مغربية وأخفاف وطنية وصنادل مستطيلة الشكل وأحذية لها رقبة من المطاط وشباشب مخططة وملونة باللونين الأحمر والأصفر وأحذية مقفلة من التيل الأبيض التي غزا بها اليابانيون موانئ الشرق وأسواقه، ومما لا شك فيه أن حذائي كان يجب أن يأخذ مكانه إلى جانب هذه المجموعة الفريدة التي يندر أن يجتمع مثلها في صعيد واحد قبل أن أتقدم وأطأ بقدمي سجاجيد الديوان الفخمة، ويجب أن أقول: إن ذلك كان معقولًا وكان أمرًا لا بد منه بعد أن قطعت كل هذه المسافة في طرقات صنعاء وفي الليل[1].

من هذا الوقت أصبحت على علم تام بتقاليد البلاط اليمني وآدابه، فكان يجب أن أقاوم كل دافع يدفعني إلى رفع الطربوش عن رأسي، وبمجرد أن دخلت البهو الملكي كان عليَّ أن أدور بعيني لكي أبحث عن الإمام ثم أنقض على ركبتيه لتقبيلهما ولكن هذه أشياء من السهل التحدث عنها لا القيام بها، ولا أدري كيف نجحت أخيرًا في الهرولة حافي القدمين على البلاط الغير المستوي المغطي بسجاجيد فخمة وثيرة، ولا كيف انحنيت حتى كدت أبلغ الأرض بدون أن يسقط طربوشي عن رأسي أو بدون أن أفقد توازني وأنا أندفع نحو المليك، الأمر الذي كان -إذا حدث- يعتبر أمرًا غير لائق وغباوة وبلاهة ما بعدهما.

بعد ذلك بحثت عن مكان خال أجلس فيه فوق الوسائد المصفوفة بطول جدران البهو الفسيح وأنا أحاذر ألا أدير كتفي للمليك، ثم جلست مربع الساقين اللتين

---

(١) يلاحظ على هذا أن جلالة الإمام لم يستقبل المؤلف استقبالًا رسميًا خاصًا؛ وإنما كان استقبالًا عاديًا خلاف ما حدث مع الأجانب؛ فكان يستقبلهم في صالون خاص كما يستقبل بقية الملوك الآخرين زائريهم.

سرعان ما بدأتا تشعران بالكلل لأنهما لم تتعودا مثل هذه الجلسة، وكان (الديوان) زاخرًا بالأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة، ولكني لم أكن أهتم بوجودهم لا هم ولا الكتاب الذين كانوا يتجمهرون أمام الباب تدفعهم الرغبة وحب الاستطلاع لمشاهدة الاستقبال الذي يستقبل به أمير المؤمنين أحد الأجانب الأوربيين. ولم يكن في البهو -في نظري- سوى الإمام. على أن حضور المترجم كان يعتبر دون شك حادثًا سعيدًا، ولكني ما كنت أعلق عليها أهمية كبرى؛ إذ إني عندما كنت أتكلم بلغتي كنت أوجه حديثي للمليك الذي كان يستمع لي باسمًا ويبدي برأسه علامات الموافقة في انتظار فهم كلامي من المترجم، وهذا ما كان يجب أن أعمله أنا أيضًا وأنا أصغي لأقواله.

كيف حالك؟ ... كان هذا السؤال يصل إليَّ غير مسموع كأنه آتٍ من بعيد، ولم يكن منتظرًا في حفلة استقبال مثل هذه الحفلة ولكنه كان مسألة إجراءات ولا شيء غير ذلك. ولما علم الإمام أن صحتي جيدة وأن رحلتي كان سعيدة موفقة ظهرت على وجهه علائم البشر وعلت ثغره ابتسامة رقيقة.

(إني أشكر جلالتكم لتفضلكم بالسماح لي بالمجيء لمشاهدة بلادكم الجميلة).

(وإني لسعيد وجد مسرور بأن أراك هنا بيننا، فلقد تحدثت الجرائد كثيرًا عن اليمن عن غير علم وأسرفت، وفي أثناء الخلاف الذي كان قائمًا بينها وبين الحجاز كتبت أشياء ما أنزل الله بها من سلطان، وبلغ بها الأمر أن ذكرت أن الإمام قد توفي وأن الأمير أحمد لاذ بالفرار من الميدان ولسوف تكتب أنت ما ستراه عيناك).

وكان الإمام يحيى بن محمد يجلس فوق وسائد حريرية لينة وثيرة، ويرتدي ملابس بيضاء فضفاضة، وكان وجهه الأسمر تحيط به لحيته البيضاء المستديرة، أمَّا

عيناه السوداوان فكان فيهما قلق كان يبدو من خلال نظاراته الشاحبة الزرقاء؛ على أنه كان منشرح الصدر، وهذا ما كان يؤثر في الجو المحيط به، ولم تمنعه ضخامة جسمه من أن يبدو حسن الصحة رغم سنيه الخمسة والستين؛ ومع هذا فإنه كثيرًا ما يُذاع عنه في اليمن وفي الخارج وما يقال عنه من أنه رجل مريض، وقد حدث أن انتهى به الأمر ذات مرة إلى الاعتقاد بأنه مريض، وذلك عندما وصل إلى صنعاء طبيب سلافي ودعاه الإمام للكشف عليه؛ إذ كان يشعر وقتئذٍ بشيء من التوعك وانحراف المزاج، وقد أحزن هذا (الكشف) الطبيب السلافي حزنًا عميقًا، فقد اكتشف علامات مخيفة لأمراض بعضها أشد هولًا من البعض، وقد تأثر الإمام يحيى كثيرًا عند سماعه هذا الكلام، حتى أنه ترامى فوق وسائده مستسلمًا وطالبًا معونة الله، فجرى الناس إليه وهرعوا من كل صوب ولفُّوه في أحد الأغطية ورفعوه من مكانه، أمَّا الخدم ورجال الخاصة والكتاب فقد تألف منهم نوع من المواكب الحزينة اتجه نحو مساكنه الخاصة وقد سرى النبأ سريان الكهرباء في الحريم وأثار البكاء والنحيب والصراخ والعويل من النساء والأطفال؛ وعند ذلك ضاق الإمام ذرعًا بما سمع وعيل صبره فوقف على قدميه صارخًا لاعنًا وانهال على الموجودين ضربًا وشتمًا، وأخذ يوزع لكماته شرقًا وغربًا على من كانوا يحملونه، وطرد الطبيب وكل من كانوا حوله شرَّ طردة[1].

أخذت في الإشادة له بالاستعراض العسكري العظيم الذي جرى في يوم جمعة رمضان اليتيمة، وأظهرت له إعجابي بالجنود الكثيرة العدد التي اشتركت فيه والجماهير الحاشدة التي شاهدته، فأجابني بقوله: إنك تقول ذلك لأنك رجل لطيف مهذب، ولا شك عندي في أنك تقول ذلك من باب التلطف والمجاملة؛ لأني

---

(١) هذه القصة لا تعرف، وإذا كان قد حدث شيء من ذلك فهو مبالغ فيه ويستبعده العقل والعادة.

شاهدت بعيني رأسي في أحد الأفلام الجنود والجماهير التي لا يحصى لها عدد والتي لا يمكن أن تقارن بها جنودنا وجماهيرنا والتي تجتمع عادة في حضرة الزعماء الأوربيين (وفي الحق أنه يوجد في (المقام) جهاز سينمائي صغير، وأغلب الظن أن السيد قاسم لم يره ولا علم له به!).

ثم تكلم الإمام وشكر للدول التي تبدي عطفها على اليمن وقال: إن علاقات اليمن مع جيرانه أصبحت طيبة للغاية، وأن الأمطار كانت غزيرة في هذا العام مما يقوي الأمل في محصول وفير إن شاء الله. ثم سألني قائلًا: هل كان الجو شديد الحرارة في تهامة عند قدومكم؟ وهل يشتد البرد في أوربا في هذا الفصل؟ كما سألني عما إذا كانت سيارتنا قد سارت بسهولة في طرقات اليمن، وعندما كنت أتحدث إليه عن الطريق المنشأ بين عدن وتعز وأقول له: إن الجزء الذي أنشأه اليمنيون أفضل من الجزء الواقع في أراضي البلاد الواقعة تحت الحماية البريطانية؛ يبدو عليه الزهو والسرور الذي يعبر عنه بهزة تبدو لها طيات قميصه وتنحسر عنها إحدى قدميه، وعند ذلك أحاول بدوري أن أمد قليلًا ساقي اللتين كانتا تسببان لي ألمًا لا يمكن احتماله.

ويطول بيننا الحديث ويتبسط ويتشعب في مختلف النواحي حتى نلمس موضوعات ما كانت لتخطر لي ببال، وكل ذلك والإمام يصغي لأقوالي ولأوصافي للشمس التي تظهر في منتصف الليل في الصيف في البلاد الأوربية الشمالية، كما أظهر له دهشتي عندما يؤكد لي أن العرافين اليمنيين يستطيعون قراءة المستقبل على عظام أكتاف الكبوش!

وكانت أمام الملك صينية نحاسية واطئة منقوشة بنقوش عربية ظريفة، وضعت عليها ثلاثة أكوام من الريالات الفضية وهرم صغير من الصلب كأنه يقف حارسًا

لخاتمه الطريف الذي يبصم به، كما كانت هناك بعض الأوراق وساعة مكتب (منبه).

وعندما يضع الإمام يده على الأوراق الموجودة أمامه قيد البحث أفهمُ أنَّ جلسة الإمام الطريفة قد انتهت وأستأذنُ في الانصراف.

٨

الإيمان إلى اليمين

واليمن في الوقت الحاضر -كما قال لي الإمام- على وفاق مع جيرانه كلهم. ويتكون حرس الإمام على الأخص من رجال الجيش والجمارك اليقظين.

وعساكر الملك إذا ما دخلوا ثكناتهم الهادئة يزينون عمائمهم بباقات صغيرة من الريحان والياسمين. وفي استطاعة بلاد العرب أن تعيش أيامًا قليلة في سلام وطمأنينة؛ لأن هذه الجزيرة المترامية الأطراف والتي تبلغ مساحتها ثلثي مساحة أوربا والتي تتكون من مناطق نضرة وأراض عظيمة الخصب، ومن صحراوات شاسعة، وأراض قاحلة جرداء تسكنها أجناس مختلفة، كانت دائمًا تنهكها الخصومات والمنازعات الداخلية والحروب الأهلية، وقد استطاع النبي محمد أن يفتحها كلها ويوحد بينها وأن يفرض على سكانها دينه الجديد؛ ولكن سرعان ما تولدت بعده الاختلافات وعادت الخصومات سيرتها الأولى واشتعلت نيران الحروب الأهلية.

ولقد تكلم أحدهم- ولا أعرف على وجه التحديد من هو- عن حدود اليمن فقال: إن هذه الحدود ليست معينة أو محددة تحديدًا كاملًا إلا من جهة البحر؛ لأن اليمن هو أخصب جزء في البلاد العربية تربة والذي هو أغناها وأنضرها وأكثرها سكانًا وأحسنها مناخًا كان في كل العصور مطمع الأنظار ومحل الغزاوات فدخله الرومان والسوريون والأحباش كما غزاه الفرس والمصريون وكما فتحه الأتراك مرتين ومع ذلك فلم يعمر به طويلًا أي مستعمر من هؤلاء المستعمرين وعندما

استطاع اليمن أن يبقى مستقلًا كانت حدوده تتغير دائمًا فكان ملوكه في بعض الأحيان لا يسيطرون إلا على صنعاء وما حولها من الهضاب والمرتفعات وأحيانًا كانوا يبسطون سلطانهم على مساحات شاسعة من الأراضي كانت تشمل نجدًا والحجاز والعسير وعدن وحضرموت وأراضي عمان وهي مناطق تتصل بالبحر الأحمر والمحيط الهندي وخليج فارس. «واليمن» معناه «بلاد اليمن» على حد قول بعضهم لأنه إذا اتجه الإنسان من الكعبة الشريفة التي تقوم في وسط مدينة مكة نحو الشرق كانت العربية السعيدة إلى يمينه. وبعد أن لحق النبي محمد بالرفيق الأعلى سرعان ما تمسك اليمنيون من سكان الجبال بالمذهب الشيعي الزيدي نسبة إلى زيد حفيد علي بن أبى طالب وخطوا على علمهم كلمة فاصلة حاسمة هي «الإيمان إلى اليمين».

أما حدود اليمن الطبيعية في الوقت الحاضر فهي دائمًا محل نزاع وأثار مناقشة وجدال؛ لأن رجال السياسة قد فقدوا كثيرًا من مرونتهم ومع ذلك فإن «معاهدة الطائف» التي عقدت بين الحجاز واليمن بعد النزاع الذي قام بينهما في سنة ١٩٤٣ قد خصصت صفحات متعددة بينت بكل دقة الحدود التي تفصل بين أراضي الإمام يحي وأملاك الملك ابن السعود وكذلك قد تم بعض التحسن من جهة الجنوب لأن الحالة المتعبة التي دامت من نهاية الحرب العظمى الأولى والتي طالما أثارت حوادث دامية قد انتهت بتوقيع معاهدة الصداقة الإنجليزية اليمنية ولكن الحدود الشرقية [1] من ناحية بحر الرمال الذي لا آخر له ولا نهاية قد بقيت متأرجحة رجراجة وغير ثابتة ولا مستقرة كأنها ظل أحد الكثبان الرملية فهي تتغير حسب مزاج قبائل

---

(١) المفهوم من معاهدة صنعاء بين بريطانيا العظمى والمملكة اليمنية أن رضا الطرفان بالوضع الحاضر مؤقتًا وفي خلال سنة المعاهدة يحلان المشاكل الخاصة بالحدود جميعها.

الصحراء والنصف الهمجية على أن هذه القبائل إذا تركت وشأنها لا تقوم بخلق المتاعب ولا تؤذي أحدًا وأغلب الظن أن تلك القبائل إذا لم تكن موجودة في مناطقها لما تغيرت حال اليمن عما هي عليه في كثير ولا قليل ولأنهم إذا قاموا بدفع العشور وهم على ما هم عليه من الفقر المدقع لما زادت ميزانية الإمام إلا قليلا ومن المعلوم أن مالية الإمام يحيى ناجحة ومزدهرة فهو يحصل الضرائب بمنتهى الشدة وفي غير هوادة كما أنه ينفق بمنتهى اليقظة والحزم ولا يستطيع إنسان أن يحصل على بيان رسمي للميزانية اليمنية التي علمها عند الإمام وحده ومع ذلك فيمكن تقدير إيرادات الحكومة بنحو الثمانية الملايين من الريالات وهذا ليس بالشيء الكثير ولكن يقابل ذلك أن المنصرف لا يزيد على الأربعة الملايين من الريالات وفي الحق أن الحكومة اليمنية لا تقدم على المغامرات في الشئون السياسية وتدفع لموظفيها رواتب ضئيلة تافهة تصل في حالات شاذة إلى أربعين ريالًا في الشهر وهي تدبر المصروفات الحربية بحزم وبمنتهى القصد.

وكذلك الحال في التجارة الخارجية فإنها قليلة نادرة ولو أنها ناشطة فإن أسعار اللبن والجلود قد تدهورت ويلاقي تصدير الأذرة والسمسم والقات والزبيب بعض المصاعب ولكن يقابل ذلك أيضًا أن الواردات إلى اليمن نادرة لا تكاد تذكر وهي تنحصر في قليل من غاز الإضاءة والدخان والكبريت والسكر وبعض المنسوجات الرخيصة من المصنوعات اليابانية أو الروسية وفضلًا عن ذلك فإن الإمام قد أضاف أخيرًا على قائمة البضائع الغير المرغوب فيها كالنبيذ والمشروبات الروحية والآلات الموسيقية ولعب الأطفال والألعاب النارية -أشياء أخرى من التي من الممكن أن تحل محلها المنتجات الوطنية.

وقد فرض الدين ضريبة العشور على المسلمين حتى إنهم إذا لم تكن هناك سلطة

شرعية لحماية هذه الضريبة منهم شعروا بالحرج أمام ضمائرهم ويقول اليمنيون: إن الصلاة توصلهم إلى منتصف الطريق إلى بيت الله والصوم يقودهم إلى بابه وأما العشور فإنها رسم الدخول فيه!

ولا تقعد السلطة المنوط بها تحصيل هذه الضريبة عن المطالبة بها ولا تهمل في أداء واجباتها وقد حدث أن وجد اليمنيون أنفسهم عدة مرات في تاريخهم أمام سلطتين كانت كل منهما تدعى لنفسها حق جباية هذه الضريبة وليست لدى الزيديين آية شبهة في هذا الأمر فالإمام هو حاكمهم المطلق وولى الأمر فيهم الذي اختاروه هم أنفسهم بمطلق الحرية وهو رئيسهم المدني والديني والرجل المقدس «المتوكل على الله» وهم مقتنعون كل الاقتناع بأنه لا يفرض عليهم قانونًا من عندياته ولكنه يعمل جهده على أن يحترم رعاياه القانون السماوي الذي فرضه عليهم دينهم ونزل به كتابهم المقدس.

ويتمتع المكل إلى جانب صفته المدنية بسلطة عليا دينية يستمد منها قوة لا يستهان بها فالزيديون يعظمونه ويوقرونه ويطيعونه في كل ما يأمرهم به ويدفعون له الضرائب والعشور عن طيب خاطر ويحاربون في صفوف جيشه عند أول إشارة تصدر منه لأنه بهذا أمرهم الله الذي أوصاهم بإطاعة ولي الأمر فيهم حتى يضمنوا لأنفسهم جنة الخلد وما فيها من نعيم مقيم كما يقدره ويحترمه بقية رعاياه من اليمانيين الغير الزيديين من شوافع وإسماعيلية وغيرهم وبدو الشرق.

لقد رأى النبي محمد بثاقب فكره وبواسع حكته أن يعين الخليفة الذي يليه ومع أنه كان قد اصطفى من سنين خلت كوزير له ابن عمه الشاب علي الذي كان أول من آمن به واتبع دينه وتزوج من ابنته فاطمة إلا أنه قد حدث أنه بسبب الدسائس التي حكيت له نزع الصولجان من يده وعُين أبو بكر خليفة للمسلمين كما عين بعده عمر

الذي اتخذ لنفسه لقب «أمير المؤمنين» وهو اللقب الذي يخلعه الإمام يحيى على نفسه وفي عهد هذا الخليفة انتشر الإسلام في بلاد كثيرة واتسعت فتوحات المسلمين حتى إنهم فتحوا ستة وثلاثين ألف مدينة وحصنًا وشيدوا ألفًا وأربعمائة مسجد.

وعندما توفي عمر نجحت عائشة[1] في الكيد لعلي واستطاعت حرمانه من الخلافة ورشحت للخلافة بدلًا منه عثمان بن عفان ولكن عندما مات هذا استطاع علي ذلك الرجل الحكيم الصالح الكريم والفارس المقدام والبطل المغوار - الاستيلاء على عرش النبي ومع هذا فإن عائشة لم تلق سلاحها بل ظلت تناوئه وتناصبه العداء حينًا من الدهر وأثارت ضده الفتن والاضطرابات كما شجعت بعض المطالبين بالخلافة على الخروج عليه والقيام ضده على أنه لم يلبث أن قتل بيد أحد الخوارج أمام مسجد الكوفة وقد انقسم المسلمون بعد وفاته إلى معسكرين عظيمين سنيين وشيعيين فكان السنيون يعترفون بشرعية خلافة الخلفاء الثلاثة الأول أبو بكر وعمر وعثمان وأما الشيعة فإنهم كانوا لا يقرون ذلك ويقولون بانحصار الخلافة في علي وأولاده وذريته.

وقد أصبح سكان الهضاب اليمنية الذين كان النبي قد أرسل لهم عليًا ليهديهم للإسلام من الشيعة وألفوا المذهب الزيدي نسبة إلى زيد أحد أحفاد علي واستمروا يختارون ملوكهم من بين أحفاد الرسول بينما بقي معظم سكان تهامة من أهل السنة واعتبروا الزيديين من الخوارج ولذلك استمر النزاع قائمًا بينهم ولم تخمد نار الحروب بين الفريقين وعندما قام «لودفيك دى فارتيما» برحلته إلى اليمن كان الخلاف بالغًا أشده بين الفريقين.

---

(١) المعروف في التاريخ أنه لم يكن لعائشة رضي الله عنها أي دخل في هذا الموضوع.

ولا يعجب للقارئ إذا علم بأني أخذت معي كدليل لي في سفري إلى بلاد الإمام يحيى كتابًا وضع من نحو أربعمائة سنة وذلك لأن الكتب التي وضعت عن هذه البلاد قليلة ونادرة بسبب العزلة التي يعيش فيها هذا البلد أما «الدليل» الذي وضعه ذلك السائح البولوني (نسبة إلى مدينة بولونية الإيطالية) فهو كتاب شائق لذيذ عظيم الأهمية وفضلًا عن ذلك فإنه ربما لا يخطر ببال أحد أن كثيرًا مما رواه فيه هذا الرحالة من الأوصاف والحكايات لا تزال آله لي اليوم قيمته.

ولقد كان «دى فارتيما» هو أول أوروبي نزح إلى بلاد اليمن وأول من نشر الأخبار عن مدنها وسكانها ومزروعاتها ومناخها فقد أبحر من مدينة البندقية في عام ١٥٠٠م. أو بعد ذلك بقليل مدفوعًا برغبته الشديدة في «تغيير مناظر بلاده ومحل إقامته ولكي يرى بلادًا جديدة ويتعلم أشياء جديدة» وكتابه هذا كتاب رجل مكتشف جليل القدر جريء مقدام قوي القلب دقيق الملاحظة نافذ البصيرة ومحدث حلو الحديث ذي تأثير عظيم قد قام برحلته هذه في أوقات كان لا يقوم فيها بالرحلات البعيدة إلا التجار والغزاة الفاتحون وكان سفره أولًا إلى مدينة دمشق حيث تعلم شيئًا من اللغة العربية ثم انخرط في سلك فرقة عسكرية من فرق المماليك كانت مكلفة بحراسة قافلة الحجاج المسافرة إلى مكة والتي كانت تتألف من ستين ألف رجل وخمسة وثلاثين ألف جمل وقد زار الأماكن المقدسة الإسلامية ومن مكة سافر إلى جدة حيث أبحر على ظهره سفينة من سفن الحجاج العائدين إلى بلاد العجم ووصل إلى عدن في خريف عام ١٥٠٣م.

ولقد احتل الإنجليز عدن بعد هذا التاريخ بثلاثمائة وستة وثلاثين سنة ولكن كانت تبدو على هذه المدينة بعد هذه الفترة الطويلة المدى مظاهر القوة وعلائم المنعة ويقول عنها «دى فارتيما»: إنها «أمنع مدينة رأيتها في حياتي على وجه البسيطة» كما

يقول عنها: إنها «عاصمة العربية السعيدة».

وفي ذلك الوقت كان اثنان من الملوك يتنازعان عرش اليمن أحدهما الملك ظافر سلطان عدن وثانيهما أحمد بن ناصر إمام صنعاء وقد قبض على رحالتنا «دى فارتيما» في اليوم التالي لوصوله بتهمة التجسس للبرتغاليين الذي كانوا قد بدءوا رحلاتهم الجريئة على شواطئ الهند وبلاد العرب وقد بقي في سجنه مدة طويلة حتى نجا من الأسر بأعجوبة. وبعد شهرين قضاهما في السجن كبلوا قدميه بالحديد وأركبوه على ظهر أحد الجمال ونقلوه في مدى ثمانية أيام إلى الروضة حيث كان السلطان يتأهب للقيام بحملة حربية على صنعاء وقد حكي (دى فارتيما) للسلطان أنه صار مملوكًا في دمشق وأنه أسلم وحسن إسلامه وأدى فريضة الحج وعند ذلك أمره السلطان بالنطق بالشهادتين ولكن دي فارتيما المسكين كان منهوك القوى ولم يستطع نظرًا لضعف جسمه وفقدانه ذاكرته النطق بهما ولذلك أعاده السلطان إلى السجن بعد أن شدد عليه الحراسة. وبعد يومين تحرك جيش السلطان كله مرة واحدة نحو صنعاء وكان هذا الجيش يبلغ عدده ثمانين ألفًا من الجند بينهم ثلاثة آلاف من العبيد الأحباش الذين تدربوا على حمل السلاح وخمسة آلاف جمل ولما يئس (دي فارتيما) من الخلاص من الأسر فكر في حيلة ظن أن فيها نجاته إذ تصنع الجنون وعندئذٍ سمح له بالخروج في الطريق مع بقاء الأغلال والقيود في يديه وقدميه (ولا يزال المجانين يسيرون بهذه الحالة إلى اليوم في كثير من المدن اليمنية) وقام بكثير من المحاولات لإلفات نظر إحدى زوجات السلطان إليه ولما أن رأته السلطانة وهو يعرى جسده في أثناء تصنعه الجنون أخذتها الشفقة عليه لأنها لم تر في حياتها جسدًا أشد بياضًا من جسده وأمرت بنقله إلى إحدى غرف قصرها الأرضية لتشديد الحراسة عليه وكانت تقوم بزيارته كل ليلة مع وصيفتها وتحمل إليه معها أطيب المأكولات وأفخر العطور وفي ذلك يقول «دي فارتيما»: «بدأت السلطانة تتنازل

بالنزول إلى الغرفة الأرضية التي كنت فيها كل ليلة نحو الساعة الثالثة أو الرابعة وكانت تحمل لي معها دائمًا مأكولات طيبة ولما كانت تدخل حيث كنت مسجونًا كانت تناديني بقولها: تعال هنا يالودفيك ثم تسألني قائلة: أتشعر بالجوع؟ وكنت من شدة جوعي أقول لها: نعم وكنت أتجه نحوها بقميصي ولكنها كانت تقول لي: «لا. ليس هكذا. بل اخلع عنك قميصك» وكنت أخلع قميصي وأعرى الجزء الأعلى من جسدي لإرضائها وكانت السلطانة المسكينة تبقى أمامي ساعتين وهي تتأمل جسدي وكنت أنا أيضًا أتأملها كما لو كانت إحدى عرائس البحر وهي تبكي وتنتحب وتتضرع إلى الله قائلة: يا إلهي! سبحانك اللهم وبحمدك جلت قدرتك أنك حلقت هذا الرجل أبيض كأنه قطعة من الشمع أما زوجي فقد خلقته أسود فارزقني مولودًا أبيض اللون كهذا الرجل». وكانت تكرر كلمات كثيرة بهذا المعنى ثم تأخذ في البكاء ثم تنصرف. وقد وعدتني بأنها بمجرد وصول السلطان سوف تسعى لديه لفك عقالي وإخلاء سبيلي».

وفعلًا نجحت السلطانة في جعله يستعيد حريته وقد تمكن «دي فارتيما» من العودة إلى عدن حيث استطاع الاتفاق مع قبطان إحدى السفن التي كانت على وشك الرحيل إلى بلاد فارس والهند على السفر معه ولكن لما كان لا يزال باقيًا على سفر السفينة شهرًا كاملًا فإنه قرر زيارة بلاد العربية السعيدة وقام برحلته إليها على ظهر جواد وكانت أول ما زاره هي إمارة لحج التي شاهد فيها كميات لا يحصى لها عدد من النخيل والتي رأى فيها الكثير من اللحم والقمح» كما زار «المقرانة» حيث «يحوز سلطانها من الذهب ما يزيد على حمل مائة بعير» كما زار أيضًا «يريم» (التي سكنها شعب من الزنوج السود والتي يوجد فيها نوع من الأغنام المخاصي السمينة الكبيرة الذيول التي يزن ذيل الواحد منها نحو الأربعة والأربعين رطلًا وليست لهذه الأغنام قرون وهي بسبب ضخامتها لا تقوى على الجري وفيها أيضًا نوع من العنب

الأبيض الخالي من البذر لم أذق في حياتي كلها عنبًا أحلى أو أشهى منه» وقد وصل «دي فارتيما» بعد ذلك إلى صنعاء حيث أدهشه أكثر من كل شيء أمران أحدهما سورها الكبير المتناهي الضخامة الذي كان يتسع لسير ثمانية من الخيول إلى جانب بعضها وثانيهما عادة أحد أبناء السلطان الغريبة الذي (كان يشتد هياجه وغضبه فيعض الناس ويأكل من لحومهم حتى يشبع ثم يتركهم). وقد شاهد في مدينة (تعز) مسجدًا بني على طراز كنيسة القديسة (ماريا روتوندا) في مدينة روما كما لاحظ وجود أسواق عظيمة في مدينة (زبيد) تباع فيها بضائع وأشياء متنوعة تشحن إلى البلاد الأخرى.

وقد زار (دي فارتيما) أيضًا في هذه الرحلة مدينة (آنس) التي تقوم بين جبلين يتوسطهما واد بارع الجمال وارف الظلال وفيها نافورة جميلة وقد نصب في ذلك الوادي سوق كان يقصده الناس من هذا الجبل ومن ذاك وقليل هم التجار الذي كانوا لا يتشاجرون مع بعضهم والسبب في ذلك هو أن التجار الذين يسكنون الجبل الغربي كانوا يطلبون إلى سكان الجبل القبلي أن يؤمنوا مثلهم بمحمد وبخلفائه الأربعة بينما كانوا الآخرون لا يريدون الإيمان إلا بمحمد وعلي ويقولون بأن الخلفاء الآخرين أبا بكر وعمر وعثمان غير شرعيين.

ويبلغ عدد الشوافع القاطنين في تهامة نحو ثلث سكان الشعب اليمني ويعتبر القرآن وكتاب الشريعة المقدسة سواء عند سكان الهضبة اليمنية أو سكان السهول الساحلية ولكن هذا لم يمنع من اختلاف وجهات النظر في شرعية حكومة صنعاء. والزيود الجبليون هم الأقوى جانبًا فتحوا تهامة وغزوها بحد السيف ولكنهم مقتنعون تمام الاقتناع بأنهم لم يستطيعوا غزو نفوس سكانها. وقد تركز الدفاع عن

اليمن وأعد كله فوق المرتفعات وذلك أولًا لأسباب حربية فنية وثانيًا[1] لأن الزيديين قليلو الثقة بإخلاص سكان السهول الشوافع إذ إن هؤلاء عندما زحفت جيوش ابن السعود في أثناء الخلاف الأخير بين الحجاز واليمن لم يترددوا في ترك تهامة في أيدي الغزاة الفاتحين بل واستقبلوا السعوديين الذي جاءوا لمحاربة الإمام يحيى بكل ترحاب ولم يدهش الزيديون لذلك لأنهم كانوا يعرفون في الشوافع عدم الإخلاص لهم على أنه عندما أخلى الجيش الوهابي الأراضي المحتلة بعد عقد الصلح لم يعمد الزيديون إلى الانتقام من مواطنيهم بسبب مسلكهم بل إنهم على العكس من ذلك اتفقوا مع مواطنيهم الإسماعيليين الذي هم قليلو العدد في البلاد إذ لا يزيدون على الاثني عشر ألفًا ولكنهم يسكنون مرتفعات «حراز» في الشمال الشرقي على الحديدة ويستطيعون بحكم موقع بلادهم الدفاع عن الهضاب والمرتفعات اليمنية.

والإسماعيليون يلفتون أنظار الباحثين في الشئون الإسلامية من عدة قرون لأن لهم طقوسًا يجب أن يكون لدى الإنسان شيء من الحيطة إذا ما تحدث عنها وهم يقيمون في أجزاء كثيرة من بلاد العرب والهند ويقال: إن منهم من يسكنون في بعض أجزاء الروسيا.

ويقال: إن الإمام يحيى قد أرسل إلى ناحية «حراز» جنوده فجأة لتجريد الإسماعيليين من أسلحتهم ومصادرة كتبهم المقدسة التي ملئوا بها خمسين صندوقًا كبيرًا وأعتقلوا أربعين من رؤسائهم أخذوهم أسرى إلى صنعاء وفرضوا عليهم إما أن يعتنقوا المذهب الزيدي أو ترك بلاد اليمن إلى غير رجعة ولقد مات كمدًا وغمًّا بعض هؤلاء الأسرى الذين اضطروا إلى اختيار أحد أمرين أحلاهما مر!!

---

(١) في كلام المؤلف هنا خلط للحقائق فاليمن وحدة لا تتجزأ شعور كل أهليها واحد والثقة متبادلة بينهم.

وقد بقي الإسماعيليون في اليمن ولكن هل يجب أن يثق إنسان بهؤلاء الزيود الجدد؟

وقد سار الإمام يحيى على طريقة أخذ الرهائن من بعض القبائل وليست هذه هي الطريقة المثلى التي من الممكن اتباعها لتكوين وحدة روحية متينة في اليمن بل إنها على العكس تحيي الأحقاد وتجدد الخلافات القائمة بين المذاهب الإسلامية المختلفة ولكن يبدو لي أنها الطريقة الوحيدة التي تستطيع حكومة -تقوم سلطتها على شعور الشعب الديني- أن تستعملها لكي تكون في مأمن من دسائس أقليات تخالفها في العقيدة الدينية.

ويبلغ عدد هؤلاء الرهائن أكثر من ألف منهم ثمانمائة في صنعاء ومائتان في الحديدة وكلهم من الأحداث الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثامنة عشر يمثلون كل القبائل الغير الزيدية وهي القبائل تستبدلهم كل بضعة أشهر بغيرهم من الصبية. ويقيم الرهائن في مدينة صنعاء في «القصر» وهو حصن العاصمة اليمنية المنيع وهذا الحصن قلعة عظيمة تكسبها مداخلها الملتوية وجدرانها العالية الخالية من الفتحات منظرًا قاسيًا مخيفًا ولكن مدافعها الموضوعة في أبراجها الجانبية لا تطلق إلا للتحية في المواسم والأعياد الرسمية.

ويجد الإنسان في «القصر» شيئًا من كل شيء ففيه دار سك النقود وعماله من اليهود وفيه مصنع حربي فيه مرة صب أحد المدافع الذي انفجر عند أول طلقة أطلقت منه كما أن فيه مخزنًا للأدوات والآلات الحربية الغير المستعملة وفيه غير ذلك كله ثكنة لمفرزة من الجنود ومدرسة للأيتام الذين يعلمهم الإمام القرآن وأصول الدين ويلبسهم بذلة صفراء وفيه علاوة على ما ذكر سجن يودع فيه المحجوزون على اختلاف أنواعهم وفيه الرهائن الذين وضع لهم نظام وسط بين نظام الجنود ونظام

الأيتام ونظام المسجونين فهم يشتركون أحيانًا في الاستعراضات العسكرية ويسيرون في صفوف الجيش بدون أن يحملوا سلاحًا وفي «اليمن» يخجل الشاب كل الخجل إذا ما ظهر أمام الجمهور بدون أن يحمل على الأقل خنجرا في خصره وهو يسير بين صفوف الجنود المسلحين حتى أسنانهم.

والقبائل التي أخذت منها هذه الرهائن هي التي تتولى الإنفاق على طعامهم وملبسهم وكذلك تفك أسر المحبوسين في الجرائم العادية فهي التي ترسل إليهم المأكل والملبس. وألا يكفي أن تقدم لهم الحكومة من عندها المسكن والقيود؟

ومما لاشك فيه أن هذه الحال تسبب لليمن بعض المتاعب إذ تجعله جامدًا وتتركه واقفًا حيث هو في عالم كل ما فيه يتحرك ويسير ويخطو بخطوات واسعة إلى الأمام فالحاضر هنا إنما هو صورة للماضي ولا شيء يسيء على اليمني ويجرح عزته وكرامته أكثر من أن تتمنى له مستقبلًا يخالف حاضره!!

ولقد بقيت الثقافة العربية المجيدة في اليمن كما كانت من عدة قرون خلت فهي تنتقل بين النصوص العتيقة والكتب القديمة البالية والأوروبي الذي يسعده الحظ بالتحدث إلى اليمنيين المثقفين بلغتهم والذي يستطيع التغلغل والوصول إلى أفكارهم وآرائهم في المسائل الفنية والعلمية - يشعر بدهشة عظيمة عندما يجد نفسه قد انفلت إلى القرون الوسطى فالعادات والزراعة والفنون قد بقيت على حالها كما كانت في الماضي. ولما استعاد اليمن استقلاله بقي في معزل عن جميع التيارات الخارجية وتجنب كل اتصال أو احتكاك مع الشعوب الأخرى التي تفوقه مدنية ولكن أي عجب في ذلك أليس أفرادها من غير المؤمنين؟ وأليس الاتصال بهم يستوجب فقدان كل طهارة؟

وليس من شك في أنه سوف يأتي يوم إن عاجلًا أو آجلًا يقوم فيه -كما حدث في بلاد إسلامية أخرى- صراع قوي عتيد بين عوامل التقدم الحية والقوات الدينية القديمة وعندئذٍ لا يعلم إلا الله وحده إذا كان هذا الجزء من بلاد العرب سيطلق عليه اسم «العربية السعيدة» أو أي اسم آخر.

٩

الكنيس المخبوء!!

في فجر أحد الأيام نفق حمار أسود اللون في طريق من طرقات مدينة صنعاء في أثناء قيامه بعمله اليومي المضني إذ كان يحمل إلى السوق حملًا ثقيلًا من تلك الأقراص الكريهة الرائحة التي هي خليط من القش وروث الجمال التي يتألف منها النوع الوحيد من وقود أفران البلاد. ولما رآه صاحبه قد عجز عن مواصلة السير ووقف وتعثر دون أن تستحثه الصيحات العالية ولا ضرب العصي ثم لم يلبث أن وقع على الأرض لا حراك به خلع عنه حمله الذي ناء به وتركه حيث هو بعد أن وضع على مقربة من فمه حزمة من الحشيش الأخضر على أن الدابة المسكينة لم يكن قد بقي فيها نفس ولم يكن فيها قوة على تناول زادها الأخير.

ولما كانت معظم طرقات صنعاء ومنها ذلك الطريق الذي سقط فيه ذلك الجحش لا يزيد اتساع الواحد منها على اتساع أي زقاق إلا أنها تبدو كثيرة الحركة وتزدحم دائمًا بالرائحين والغادين فإنه يمكننا أن نتخيل ما يسببه من الضيق والغم وجود تلك الجيفة التي تعرقل حركة المرور والتي سرعان ما تنفتح وتفسد الجو برائحتها الكريهة المؤذية دون أن يهتم إنسان بتحريكها أو نقلها من مكانها حتى الغد إذ إن اليوم هو عيد اليهود هم وحدهم المكلفون بنقل الجيف من طرقات صنعاء.

وعندما كان اليمنيون يمرون من تلك الجهة كانوا يديرون وجوههم إلى الناحية الأخرى ويسدون أنوفهم وهم يحاذرون أن يلمسوا الدابة النافقة حتى ولا بأطراف أحذيتهم وهم أثناء ذلك يصبون لعناتهم على اليهود الذين يفضل الواحد منهم

الموت على أن يحرك إصبعًا من أصابعه يوم السبت. ومع ذلك فهل لم يخطر ببال العرب أن يحل أحدهم مرة واحدة محل اليهود ويتطوع بنقل هذه الجيفة من مكانها؟

أما اليهود في أيام أعيادهم فلا يظهر لهم أثر في شوارع المدينة بل يبقون في حيهم البعيد ويقبعون في دورهم المطفأة الأنوار وفي كنسهم التي لا يمكن أن يتبينها المارة لعدم وجود علامة تميزها عن بقية المساكن ويلبسون أفخر ما عندهم من الملابس ويشربون النبيذ ويستريحون... وكل ما يسمح به ليهود اليمن هو ... شرب النبيذ والراحة في يوم السبت ولا شيء غير ذلك.

أما القيود المفروضة عليهم فإنه لا يحصيها عد إذ إن كل شيء يشعرهم في كل لحظة بالذلة والمسكنة وبالانحطاط ولا يسمح لهم العرب بالسكنى في مدينتهم بل لقد أجلوهم إلى «أحياء اليهود» الخاصة لكي يبعدوهم قدر المستطاع عن أنظار المواطنين. ويقوم حي اليهود في تعز فوق أحد التلال وأما «الحي» الذي يقيمون فيه في «معبر» فهو قرية صغيرة ضرب حولها سور وتبعد بضع كيلومترات عن مساكن المدينة وأما «حي اليهود» في صنعاء الذي يقال له «قاع اليهود» ففي إحدى ضواحيها التي كادت تربطها بالمدينة المباني التي شيدها الأتراك تدريجًا في أيام حكمهم لليمن.

ومما لا شك فيه أن اليمن ليس هو وحده البلد الذي يضطهد اليهود والذي يلاقون فيه مثل هذه المعاملة الشاذة لأن المسكنة والعزلة التي ضربت عليهم كانت حظهم المعتاد منذ الأزمان الماضية (عندما لا يطردون من البلاد كما هو حادث في هذه الأيام) على أنهم كانوا يومًا ما سادة هذه البلاد التي لا تزال تسيء إليهم وتضطهدهم كما كانت تفعل في القرون الوسطى.

وفي الحق أنه لم تبق آية ذكرى طيبة لاستعمار اليهود اليمن لأن أشهر ملوك بني

إسرائيل الذي كان يلقب باسم (أبى نحواس) بسبب الضفائر التي كانت تتدلي من صدغيه كان يضطهد نصارى (نجران) أشد إضطهاد ويقال: إنه ألقى بعشرين ألفًا منهم في النيران المستعرة ولكن ليست ذكرى هذه القسوة الوحشية وذلك التعصب الديني الشنيع هي التي تحمل اليمنيين على أن يفرضوا على اليهود حلق رءوسهم وترك لحاهم مرسلة على أصداغهم بل إن ما يهتم له الزيديون هو أن يكون ثمة ما يميز اليهودي عن العربي المسلم. فلا عمائم لليهود لأنهم لا يلبسون إلا قلنسوة سوداء ولا ملابس مزركشة بل قفطان من التيل أو الصوف!!

ويمكن القول بأن العرب لا ينظرون إلى اليهود إلا نظرة الاحتقار والاشمئزاز ولكن ترى من عساه يشكو في اليمن معاملة أسوأ من هذه المعاملة؟

لا أحد ... فالرق هنا يكاد يكون اسمًا لا معنى له والعبيد القلائل وكلهم من الأحباش يعاملون معاملة رحيمة ويعيشون عيشة قد يغبطون عليها من كثيرين من الأحرار فهم يندمجون في الأسر وتلحق النساء بالحريم وينتهي الأمر برجالهم أن يصيرا خدمًا مخلصين لسادتهم ومالكيهم.

ورغمًا من سهر الدول ويقظتها لا ينقطع تجار العبيد عن مزاولة تجارتهم الذميمة الممقوتة فيهم يسوقون العبيد في جماعات صغيرة إلى الجهات الصحراوية المقفرة على شواطئ البحر الأحمر ويركبونهم (السنابيك) التي تنقلهم إلى الشواطئ العربية وشواطئ خليج فارس ويقال: إن النخاسين لخوفهم من أن تدركهم سفن البوليس المخصص لمع تجارة الرقيق اعتادوا أن يربطوا حجرًا كبيرًا في قدم كل عبد حتى يستطيعوا إخفاء حملهم بإلقائه بسرعة في البحر إذا ما اقترب منهم مطاردهم ولا أدري إذا كان بعض هذه (السنابيك) لا يزال يظهر أمام الشواطئ اليمنية إلى الآن حيث إن بضاعتها أصبحت غير مرغوب فيها.

ومما لا شك فيه أنه هناك عبودية حقيقية في وقت من الأوقات ولكن سرعان ما فقدت في اليمن كما في غيره من بلاد العالم الإسلامي الكثير من أشكالها الكريهة إذ إن العبيد كان في مقدورهم دائمًا أن يتحرروا وأن يعملوا في الصناعات والمهن التي تعافها نفوس العرب وهنا في اليمن طائفة خاصة من الخدم يقال لها (الأخدام) تتكون من أناس من شتى الملل والنحل هم خليط من كل سلالة ومن كل جنس تقوم بأعمال مختلفة فمنهم القصابون والحلاقون والحجامون والختانون وعمال الحمامات العامة والحمالون ومفرغو السفن في الميناء والنسوة اللاتي يعملن في تنظيف البن وفرز حباته ومما لا شك فيه أن حالتهم الاجتماعية لا تدعو للشفقة وعلى الأخص إذا كانوا مسلمين إذ إنهم يتمتعون بكافة الحقوق المدنية ومنها امتلاك العقارات.

ولقد سمح لليهود بأن يتملكوا منازل يسكنوها على شرط أن تكون ذات شكل متواضع وألا تتكون إلا من طابقين اثنين والواقع أن الإنسان سرعان ما يلاحظ عند زيارته للمدن اليمنية أن لدور اليهود منظرًا يختلف كل الاختلاف عن منظر القصور اليمنية ذات الزخارف الكثيرة ونحن في غنى عن القول بأن قاع اليهود إذا ما قورن بأحياء العاصمة الأخرى لا يعد شيئًا مذكورًا وعلى الأخص بسبب خلوه من المساجد الجميلة ذات القباب الفخمة والمآذن الرشيقة وما تعطيه لها من جمال وأبهة وجلال.

وفي الحق أنه توجد بعض الكنس في اليمن وعددها لا بأس به ولكن «الكنيس» لا يجب أن يمتاز عن الدور في شيء ولا يجب أن تبدو فوقه آية علامة خارجية تميزه عن منازل «قاع اليهود» لأن منظره يسبب الملل وتشمئز منه نفوس اليمنيين وهكذا أصبحت «الكنس» مخبوءة ومحجوبة عن العيون وكثيرًا ما يلاحظ الإنسان وهو سائر

في طرقات حي اليهود القذرة الضيقة جمهورًا صغيرًا يخرج من باب صغير في أحد المباني هم رجال نحاف الجسوم صفر الوجوه ونساء يغطين رءوسهن بمناديل كبيرة سوداء اللون طرزت حوافيها بالفضة وأطفال يحملون فوق ملابسهم كل نوع من أنواع التمائم التي تقيهم شر الجن ولا يخرج هؤلاء من حفلة استقبال أو من إحدى الولائم بل من «الكنيس» وهذا الباب الصغير الذي يخرجون منه يؤدي إلى فناء طليت جدرانه بالجير وبه بعض مكاتب وغرف صغيرة وفي آخره يفتح باب المعبد وهو غرفة فسيحة فرشت أرضيتها بالحصير وقد خلت من الأمتعة والرياش إلا من خزانة صغيرة أعدت لحفظ الكتب المقدسة.

ومن أسعده الحظ بزيارة مساكن اليهود بصحبة واحد منهم تتكشف له حقيقة حياة الإسرائيليين في اليمن تلك الحياة المكرسة كلها للأسرة والعمل فهم يعنون بمساكنهم عناية يندر أن يجدها الإنسان في منازل العرب والترجيلات الفخمة المزركشة التي هي فخر «المفارج» اليمنية وزينتها والتي هي بهجة المدخنين تصنع في هذه الأفنية التي تصنع فيها أيضًا كل الحلي والمصوغات الذهبية والفضية الرقيقة من العقود والأساور والخواتم والدلايات والتمائم التي يحلو لنساء العرب التزين بها.

وليس في استطاعة اليهود كما قلنا حمل السلاح ومع كل فهم الذين يجعلون مقابض الخناجر والسيوف ذات منظر فخم عظيم بما ينقشونه ويحفرونه عليها من نقوش وزخارف بديعة.

وليس لهم حق السكنى في قصور فخمة رائعة أو دور مزخرفة أنيقة ولو أنهم الذين يبنون قصور السادة والأغنياء والأمراء ويزينونها أحسن زينة!

ولا يسمح لليهود بركوب الخيل على أن البرادع الجميلة التي توضع فوق ظهور

الجياد العربية الأصيلة إنما تخرج من تحت أيدي اليهود الماهرة العاملة الناصبة.

وصفوة القول: إن معظم تجارة وصناعة المدن اليمنية تكاد تكون محصورة في أيدي اليهود ومع كل ذلك نرى العرب يضمرون لهم كل احتقار وازدراء ولو أنهم يعلمون كل العلم أنهم لا يستطيعون الاستغناء عن عملهم الثمين ويهتم الإمام يحيى بنافذ بصره وواسع حكمته كل الاهتمام باليهود ويقدرهم حق قدرهم. وهناك في اليمن قانون قديم معمول به من عهد بعيد يقضي بانتقال أملاك من يخرج من اليمن من اليهود إلى يد الملك ومع ذلك فقد تم في السنين الأخيرة ارتحال عدد عظيم من اليهود وأذكر أني شاهدت في ليلة دافئة من ليالي شهر ديسمبر الماضي بضع مئين من اليهود عند مرسى البواخر في ميناء عدن مجتمعين ينتظرون دورهم في السفر إلى فلسطين وطنهم القومي المزعوم وكانت لمعظمهم تلك اللحية الطويلة المرسلة من أصداغهم أما نساؤهم فكن لا زلن يحتفظن بملابسهن التقليدية التي كن يرتدينها في المدن التي جئن منها فالصنعانيات كن يلبسن السراويل التيلية السوداء المشدودة إلى كعوبهن برباط من حرير أحمر وكن يغطين رءوسهن بمناديل سوداء كن يمسكن أطرافها بأيديهن لتغطية أفواههن. أما يهوديات تعز فكن يتحلين بعقود مختلفة الألوان وبأكاليل صغيرة لطيفة وقد لبث هذا الجمهور في انتظاره لا يبدي حركة ولم تكن تبدو الحياة إلا في عيون أفراده التي كانت تشرق بالآمال.

واليهود هم الذين أشار النبي محمد بأنهم أعداؤه الألداء ولذلك صب لعنته عليهم ولعن كل من اتصل بهم والواقع أنه لخير للمرء ألا يتعامل معهم وألا يجدهم بين قدميه. ولكن لو أن اليهود جميعًا تركوا بلاد اليمن فمن ذا الذي يستطيع أنْ يحل محلهم أو يملأ الفراغ الذي يشغلونه؟

هل هم العرب؟

ويعرف الإمام يحيى رعاياه حق المعرفة ولذلك ليست عنده شبهة في هذا الأمر ويؤثر عدم الاستيلاء على أملاك اليهود ومنهم من جمع ثروات طائلة رغم كل الصعوبات التي يلاقونها ويفضل الاحتفاظ بأولئك القوم الدمثي الخلق العاملين المجدين الذين يساعدون مساعدة جدية على تقدم بلاد اليمن ونجاحها ورفاهيتها وزيادة ثروتها.

ومع أن الإمام قد ترك اليهود في حالتهم الاجتماعية المنحطة ولم يعمل على رفع القيود الثقيلة المفروضة عليهم إلا أنه قد اتخذ في السنوات الأخيرة عدة تدابير من شأنها منع العرب من مصارحة اليهود بالعداوة والبغضاء ولسوف يقول بعض المتعصبين إن الإمام يحمي اليهود ويشملهم بعطفه ورعايته!!

والواقع أنه لحمايتهم والمحافظة عليهم قد سجنهم وأحكم إغلاق الباب دونهم!!

١٠

عاهل بلاد العرب

لعل أعظم حادث وقع لليمن في هذه السنوات الأخيرة كان الخلاف بينه وبين الحجاز. وقد استيقظ العالم الذي لم يكن على علم بحقيقة الموقف في بلاد العرب الجنوبية بعد انتهاء الاستعمار التركي واستمع لإشاعات الحرب بدهشة عظيمة. فقد ظهر اليمن بغتة أمام الناس ولم يكونوا يسمعون به أو يعلمون من أمره شيئًا وسرعان ما تناقل الناس الحديث عنه لأنه كان يبدو أمامهم كشيء عفي عليه النسيان طفا على سطح الماء الذي كان يغمره ويحجبه عن الأنظار من عهد بعيد.

اليمن؟... صنعاء؟... لم تكن معظم الجماهير تعرف لهذه الألفاظ معنى وحتى الكتاب السياسيون أنفسهم اضطر الكثيرون منهم إلى الانقضاض على المعاجم والخرائط الجغرافية يبحثون فيها وينقبون وإلى الكتب المدرسية يستقرئونها فلم يظفروا منها عن اليمن إلا بأشياء لا تسمن ولا تغني من جوع!

وعلى أثر ما كتبه الصحفيون الأوروبيون في أثناء الخلاف وبعده قامت صحافة القاهرة ودمشق تندد بجهل الأوروبيين ببلاد العرب بوجه عام وباليمن خاصة لأن كتابهم أخذوا يتخبطون في كتاباتهم وخلطوا كثيرًا في الأسماء والتواريخ كما نسبوا إلى مختلف البلاد الغربية المتاخم بعضها لبعض سكانًا ومذاهب دينية ومصالح تخالف تمام المخالفة سكانها وعقائدها ومصالحها.

وفضلًا عن أن السفن التجارية الأوروبية الضخمة الكثيرة العدد تتقابل كل يوم في مياه البحر الأحمر فإنها تمر كل يوم على مرمى السهم من السواحل اليمنية دون أن

تعرج عليها. ومن عادة اليمن ألا يتحدث عن نفسه وألا يدع الناس يتحدثون عنه كثيرًا لأنه يعيش معتكفًا في داخل حدوده على ما يشتهي غير مكترث بما يجري في أنحاء العالم الأخرى من الأحداث جليلها وحقيرها وبدون أن يخفي رغبته في أن يقلل الأجانب من الاهتمام بما يحدث في داخل حدوده ومع هذا فهل لم يقل الناس دائمًا أن أسعد الشعوب هي التي لا تاريخ لها؟

وإذا كان لا يزال يوجد شيء من الحقيقة في تلك الميزة القديمة التي يحتفظ بها ذلك الجزء من بلاد العرب فإنه كان مدينًا به لتلك العزلة التي يلتزمها وذلك الصمت الذي عرف كيف يحيط نفسه به.

أما الجزء الآخر من بلاد العرب وهو الذي يقال له «الصحراء» فقد عرف الناس عنه بعض الشيء في السنوات الأخيرة بفضل ذلك الكتاب الشائق الذي وضعه عنه «لورنس» الشهير وبفضل الرسائل الممتعة التي يكتبها عنه المستشرق «فيلبي» من آن لآخر، كما عرفوا عنه بعض الشيء مما ذاع في أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها عن الحوادث التي أثارها صراع المتحاربين حول قناة السويس والوقائع التي وضعت حدًّا لحكم الهاشميين وسيطرتهم على الأماكن المقدسة الإسلامية وعن إنشاء الإمبراطورية الوهابية العظيمة:

ولقد كانت صورة ابن السعود الوقورة وشخصيته المبجلة في الصف الأول دائمًا لأن تاريخ حياة هذا الأمير البدوي النبيل والفارس المغوار القدير والسياسي الحاذق الفطن اللبيب الذي هو أشبه شيء بالقصص الخرافية أو الروايات الخيالية كان موضوعًا لعدة مؤلفات لبعض الكتاب الذين خلع عليه نفر منهم لقب «نابليون الصحراء».

ويعلم الناس جميعًا أن هذا الرجل في مدى عشرات قلائل من السنين قد بنى مجده وأنشأ إمبراطوريته الشاسعة المترامية الأطراف وكانت أسرة آل سعود قد طردت من إمارتها في (الرياض) على يد آل الرشيد الذين كانوا يحكمون في (حائل) والذين اضطروا السعوديين إلى الالتجاء إلى بلاد الكويت. ولقد كان ابن السعود لم يزل في الخامسة والعشرين من عمره وكان لا يزال فقيرًا لا يحكم إلا على عصاه عندما فكر في استعادة ملك آبائه وأجداده فقام ومعه ثلاثون رجلًا من رجاله الأشداء المخلصين كانوا على تمام الاستعداد للمغامرة معه بحياتهم ولاحتمال كل ما قد يصيبهم في سبيل نصرته. وقد نجح ابن السعود في التسلل ليلًا وبدون أن يراه أحد إلى (الرياض) والتغلغل في قلب مدينته القديمة ومسقط رأسه حتى وصل إلى قلعتها بشجاعة وجرأة عظيمتين وفيها استطاع التغلب على الأمير عجلان وقتله بعد عراك عنيف قام بينه وبينه جسمًا لجسم.

ولم يلبث على أثر هذا النجاح الأول أن قام بزحف سريع خاطف خلال الصحراء الرملية القاحلة واحتل مقاطعات نجد الواحدة تلو الأخرى بعد معارك دامية حامية الوطيس وكان احتلاله إياها بهذه السرعة قد جعل له شهرة عظيمة ذاعت عنه في الآفاق وكان من شأنها أن هابه الجميع واعتقدوا بأنه الرجل الذي لا يقهر!

وكان يتبعه أنى سار رجاله البدو الذين كانوا يخضعون خضوعًا أعمى للقوانين والتعاليم الوهابية الصارمة وكانوا يتحملون كل المصاعب ويواجهون كل الأخطار في سبيل نصرة قضيته فلم يمض طويل وقت حتى فتح مدينة (حائل) بعد أن أباد آل الرشيد وشتت شمل رجالهم كما غزا أرض الإحساء الواقعة على الخليج الفارسي وأخيرًا وجه نظره شطر الهاشميين الذين كانوا أصدقاء لبريطانيا ودخل عاصمتهم

مكة في اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر سنة أربعة وعشرين وتسعمائة وألف.

استمرت فتوحاته في الامتداد حتى بعد احتلال الأماكن المقدسة وبعد أن استولى على جدة تقدم نحو العسير وكان مقدرًا له أنه في زحفه نحو الجنوب لا بد وأن يلتقي ويصطدم مع إمام الزيديين الذي كان قد احتل إقليم الحديدة وكان يحاول أن يمد في حدود مملكته نحو الشمال. وفي الحق أنها كانت ستكون مقابلة تاريخية مشهودة بين ملكي بلاد العرب ابن السعود ويحيى بن محمد اللذين لشخصيتهما أهمية عظمى لأنهما الرجلان العربيان الوحيدان اللذان يستطيعان المفاخرة بأن مملكتيهما مستقلتان استقلالًا تامًّا عن كل سيطرة من جانب الدول الأجنبية واللذان هما في الوقت الحاضر رئيسان دينيان لطائفتين كبيرتين من طوائف المسلمين يحكمان حكمًا أوتوقراطيًّا تلك البلاد التي لا تزال تبهر عيوننا وتأخذ بمجامع قلوبنا وكلاهما لم يخرج للآن ولم يتخط حدود بلاده.

وكان حظ بلاد العسير يتأرجح في كفة القدر أمام هذين الرجلين العظيمين والعاهلين الطموحين وكان في استطاعة هذه البلاد أن تقوم بوظيفة دولة تجعل من نفسها حاجزًا وسدًّا بين دولتي اليمن والحجاز وأن تعيش عيشة سعيدة ناعمة البال على حساب هذا الوضع لو لم يكن على رأس حكومتها إذ ذاك رجال ضعاف النفوس لم يعرفوا كيف ينتفعون بهذا الوضع.

ولكن إلى أية حكومة كان يجب أن تنضم بلاد العسير انضمامًا شرعيًّا إذا ما فقدت استقلالها؟ أللحكومة الوهابية أو إلى حكومة الزيديين؟

كان الإمام يحيى يقول: إن العسير كانت في الماضي جزءًا من العربية السعيدة ولذلك يجب أن تعود إلى أحضان أمها اليمن!

أما السعوديون فقد نشروا من جانبهم (كتابًا أخضر) زعموا فيه أنه لا توجد حدود طبيعية تفصل بين أجزاء بلاد العرب فضلًا عن وحدة اللغة والدين وقالوا: إن شبه الجزيرة العربية إنما هو كل لا يتجزأ...

وإن الذي أعطى تلك الحرب العجيبة التي قامت بين البلدين العربيين طعمًا غريبًا وساعد على تخبط آراء المراقبين الغربيين إنما كان الشكل الذي اتخذته هذه الحرب والخاتمة الحاسمة التي انتهت بها. أما السبب الرسمي الذي اتخذ ذريعة للبدء في الأعمال العدوانية فهو قبول الإمام يحيى التجاء الأمراء الأدارسة الذين كانوا بمعاونة بعض أفراد من اليمنيين يثيرون الاضطرابات ويعملون على إثارة الفتن ضد الحكومة التي كان قد أنشأها ابن السعود في بلادهم وكان يشملها بحمايته.

لم يلتحم الجيشان في معركة حقيقية لأن اليمنيين الذين كانوا يقاسون في تهامة أشد أنواع الحر كانوا يتحاشون الالتحام في المعركة في السهل الساحلي المحرق الذي يسكنه قوم يشك كثيرًا في إخلاصهم كل الإخلاص لحكومة صنعاء. وآثروا التقهقر إلى الجبال تاركين الجيوش السعودية المدربة أحسن تدريب على حروب الصحراء – تزحف بطول الساحل وتتوغل في أراضي تهامة دون أن يقاوموهم حتى دخلوا مدينة الحديدة.

ولقد كان من الممكن أن تنشب المعركة في تلك اللحظة عندما أخذ السعوديون الذين كانوا تحت قيادة قائدين محنكين هما أكبر أبناء الملك ابن السعود- يشقون لأنفسهم الطريق بين المرتفعات إلى صنعاء ومع ذلك فإنه كان يبدو للعالم عندما كان يسمع أنباء الفتن والثورات في الأقاليم اليمنية وما أذيع من أخبار عن موت الإمام يحيى – إنه ليس هناك ما يمنع ابن السعود من ضم بلاد اليمن كلها إلى بلاده.

حقيقة أسرعت إلى ميناء الحديدة السفن الحربية التي أرسلتها بمنتهى السرعة الدول العظمى التي لها مصالح في البحر الأحمر ولكن لم يبد أن هذه الدول كانت متفقة فيما بينها على الإجراءات التي يجب أن تتخذها. ومن جهة أخرى كان الناس يعرفون مقدار الصعوبات التي لا بد أن يلاقيها الجيش الوهابي الزاحف وهو يخاطر بالقتال وسط الجبال الوعرة التي لا تستطيع الوسائل الميكانيكية أن تتحرك فيها أو تجد لها فيها طريقًا يسهل لها التقدم إلى الأمام.

وعلى حين بغتة «هب» الصلح وهو في الحقيقة صلح كان أغرب من الحرب لأنه لم يكن ليغير الموقف الذي خلقه احتلال السعوديين للعسير تغييرًا يذكر فلم تفرض على الإمام يحيى أية تعويضات مالية ولم يرغم على التنازل عن شيء من الأراضي اليمنية ولكن الذي فرض عليه إنما كان تسليم الأدارسة وإطلاق سراح الرهائن الذين أخذوا من جبال العسير... ولا شيء غير ذلك...

وهذه المسألة هي وحدها ودون باقي الشروط هي التي أشارت إليها الرسائل التي تبودلت بين المندوبين المفاوضين. ولكن معاهدة الصلح التي أطلق عليها معاهدة الطائف لم تكن إلا أنشودة من أناشيد «الوحدة العربية».

وقد أصبح المنظر شعريًا عندما وصل الأدارسة مع أتباعهم الذين كانوا لا يقلون عن ثلاثمائة شخص إلى الحديدة حيث استقبلهم الأمير الشاب فيصل آل سعود أحسن استقبال وأسرع الأمير حسن الإدريسي بإرسال برقية إلى الملك ابن السعود يشكر له لطفه وكرمه. وقد رد عليه الملك السعودي قائلًا: «حمدا لله على وصولكم بصحة جيدة. واعلم باركك الله أن كل ما تم إنما تم بفضل الله وبأمره فكن مطمئن البال ولن ترى إن شاء الله إلا ما يسرك».

أما باقي المعاهدة فيلقي ضوءًا كبيرًا على نفسيتي هذين الرئيسين العربيين وعلى الأخص نفسية الملك ابن السعود الذي يرجع إليه الفضل في وضع نص الوثيقة وروحها لأنهما رغبة منهما في وضع حد للحرب التي قامت لسوء الحظ بينهما وللتوفيق بين الأمة الإسلامية ولصون كرامتها ورفعة شأنها والمحافظة على استقلالها – قررا أن يعقدا «معاهدة الصداقة الإسلامية والأخوة العربية» وأن يوطدا بين الحجاز واليمن علاقات حسن الجوار لكي تتكون من البلدين «وحدة أمام الحوادث المفاجئة ولإقامة بناء متين البنيان يصون مصالح الجزيرة العربية واستقلالها».

وبتوقيع هذه المعاهدة انتهت حالة الحرب وسرعان ما توطد بين البلدين وبين الشعبين صلح دائم وصداقة أكيدة وأخوة إسلامية عربية لا يمكن أن تتزعزع لا في مجموعها ولا في أي جزء من أجزائها» ولقد أشهد الملكان الله على حسن نياتهما ورغبتهما في التوفيق وجمع الكلمة والاتحاد والتعاون سرًّا وعلانية واعترف كل فريق من الفريقين المتعاقدين للآخر بكامل الاستقلال والسيادة المطلقة على بلاده متنازلًا عن كل حق سبق له أن ادعاه أو طالب به في أراض أو فيما عداها.

ولقد اتخذت كل الوسائل السلمية التي من شأنها إنهاء هذا الخلاف كما رسمت الحدود النهائية بين البلادين بكل دقة ووضح مركز القبائل المقيمة على الحدود من الناحية القانونية وتعهد كل فريق من الفريقين المتعاقدين بأن لا يقيم حصونًا على مسافة تقل عن خمسة كيلو مترات من حدود الآخر وأن يسحب جنوده من الأراضي التي اعترف بأنها من بلاد الطرف الآخر.

على أنه توجد في المعاهدة بعض مواد قد يبدو لأول وهلة أنها نصوص شكلية لا قيمة لها ولكنها في الحقيقة ذات أهمية عظمى ومغزى كبير ومنها هذه المادة: «يقرر الطرفان المتعاقدان المرتبطان بروابط الأخوة الإسلامية والجنسية العربية أن أمتيهما

إنما هي أمة واحدة وأنهما لا يضمران الشر لأحد وأنهما يعملان على رفعة شئون الأمة تحت ظل السلام والهدوء وأنهما سيبذلان جهديهما في كل وقت لخير بلاديهما وأمتهما دون أن يحاولا الاعتداء على أحد. وفي حالة اعتداء أجنبي على أراضي أحد الطرفين يلتزم الطرف الثاني بتنفيذ هذه التعهدات وبالمحافظة على حياده سرًّا وعلانية وبتقديم المساعدة الأدبية الممكنة وبالبدء في مفاوضة الطرف الآخر لمعرفة أحسن الطرق لضمان سلامة أراضيه وبتجنب الأضرار به وبالامتناع عن القيام بأي عمل يمكن أن يفسر بأن من شأنه معاونة المعتدي الأجنبي».

«ويقرر كل فريق من الفريقين المتعاقدين أيضًا باستعداده للسماح لمندوبيه وممثليه في الخارج بتمثيل بلاد الطرف الآخر في أي أمر وفي أي وقت عندما يرغب الطرف الآخر في ذلك ويكون مفهومًا بأنه متى وجد أشخاص من الفريقين يقومون بهذه الوظيفة في مكان واحد يكون من الواجب عليهم أن يتشاوروا لكي يوحدوا مسلكهم لمصلحة البلدين والشعبين اللذين يعتبران كأنهما أمة واحدة ويكون مفهومًا كذلك أن هذه المادة لا تقيد في شيء حرية أحد الفريقين في مزاولة أي حق من حقوقه ولا يمكن أن تفسر بأنها تحد حرية الطرف الآخر أو تلغيها».

وسرعان ما أدهشت هذه المعاهدة العالم بأسره للكرم والتسامح اللذين أظهرهما ابن السعود واللذين زادا في رفعة مقام «نابليون الصحراء» وعلو مركزه في نظر العالم العربي إذ إن هذه المعاهدة بدأت تعتبر النداء الأولى أو النداء الرسمي الجديد «للوحدة العربية».

ولا حاجة لتفسير اعتدال ملك الحجاز بصعوبة بقاء تهامة في يديه بدون احتلال الهضبة اليمنية كلها أو بالخوف من تدخل الإنجليز ومعارضتهم في إنشاء دولة عربية كبيرة متحدة في بلاد العرب. وربما كان لمثل هذه الاعتبارات تأثيرها في مجرى

الخلاف. وعلى كل فإن ابن السعود لم يدع الفرصة تفلت من بين يديه تلك الفرصة التي سنحت له وأخذ يبث أفكاره وآراءه في المسألة العربية.

أما فكرة تحقيق (الوحدة العربية) التي لم توجد قط في غير الوقت الذي استطاع فيه (الرسول) تحقيقها فقد كانت فكرة الشريف حسين الهاشمي أمير مكة وملك الحجاز الأسبق الذي عمل على تحقيقها في عام ١٩١٦ بعد أن أصبح ملكًا على الأراضي المقدسة كما نادى بها أيضًا وأراد العمل لإخراجها إلى حيز الوجود ابنه الملك فيصل الذي ارتقى بمساعدة الإنجليز عرش العراق.

ويمكن القول بأن هذه الفكرة كانت حتى الأمس فكرة الملوك الهاشميين قبل غيرهم من العرب. أما الآن فبموت الحسين وفيصل واختفائهما من مسرح السياسة العربية يتلفت المطالبون بالوحدة العربية نحو ابن السعود وينظرون إليه بصفته الرجل الوحيد الذي يستطيع تحقيق حلمهم اللذيذ لا أدري ما الذي يمنع العرب جميعًا من اعتبار ملك الحجاز الذي هو أقوى مركزًا وأحسن استعدادًا من الملوك الهاشميين — الشخص الوحيد الذي يستطيع تحرير الشعوب العربية الأخرى من كل نوع من أنواع الوصاية الأجنبية ويضمن لأمتهم وحدتها وكامل استقلالها؟

ويجب قبل كل شيء ألا يغيب عن بالنا مركزه بوصفه رئيس الدولة الوهابية وقد قام ابن السعود بفتوحاته باسم الدين فكان رجاله يذهبون إلى النصر وإلى الجهاد وإلى الاستشهاد في سبيل قضيتهم بنفوس راضية مطمئنة كما كان يذهب المسلمون أيام نشأة الإسلام للجهاد وللموت في سبيل الله. ولكن هل تستطيع الدول العربية التي أصابت طرفًا من المدنية بعد احتكاكها بالمدنية الغربية أن تقبل الخضوع للقواعد الصارمة التي يفرضها المتطرفون الوهابيون؟

أراد ابن السعود بمعاهدة الطائف أن يطمئن هذه الدول من هذه الناحية وأن يقنعها بألا تخشى شيئًا من ذلك. وأن عبارة (البلدان أمة واحدة) التي وردت وتكرر ذكرها أكثر من مرة في هذه (المعاهدة) إنما هي برنامج لا يبرر أي تحفظ. وفضلًا عن ذلك فإنها قد قدمت على سبيل المثال في اتفاق عقد بين بلدين مسلمين عربيين يختلف أحدهما عن الآخر في مذهبه الديني كل اختلاف.

ولقد كان للعقيدة الدينية حتى اليوم المكان الأول في الاعتبارات السياسية عند المسلمين العرب أما الآن فيجب أن تخضع العقيدة لفكرة (الأمة) وقد يكون من الصعب القول بأية نفس قبل بعض اليمنيين أن يوقعوا في معاهدة الطائف على (النداء) الجديد للوحدة العربية. ومما لاشك فيه أن هناك نفرًا من المحافظين يعتقد في قرارة نفسه أن هذه المعاهدة قيمتها في أنها عقدت لتجنيب البلادين ويلات الحرب ولعدم سفك دماء المسلمين لأن هذا النفر لا يعرف ما هي (الوحدة العربية) ولا ما هي (الأمة) لأن اليمنيين زيديون وسيبقون زيديين إلى ما شاء الله إذ بينما كان رؤسائهم المتصالحون يرتبطون بروابط الصداقة والمحبة ذهب ثلاثة من اليمنيين المتعصبين لأداء فريضة الحج في مكة وحاولوا برعونة وغباوة وطيش - الاعتداء على حياة الملك ابن السعود أمام الكعبة. والإيمان هو عندهم وسيبقى دائمًا إلى اليمين وسوف يستمر مسيطرًا على أفكارهم وعلى أعمالهم كلها!

ولكن مما لاشك فيه أن هؤلاء أصبحوا أقلية في اليمن ويوجد إلى جانب هؤلاء كثيرون يرون في معاهدة الطائف أساسًا صالحًا لحياة هادئة مستقرة ووسيلة ناجحة لتقدم الدول العربية وسعادتها وذلك لأن الفكرة الوطنية التي تضمنتها والتي نودي بها إذا لم يكن من شأنها تحرير البلاد العربية الخاضعة للحماية أو الوصاية أو الرقابة أو الانتداب الأجنبي فإنه على الأقل سوف تشجع على مقاومة ما قد تقوم به الدول

الأجنبية من اعتداءات أو محاولات لخنق الحرية في أي بلد من البلاد العربية.

ويمكن القول بأن ابن السعود قد أصبح في الواقع من الآن فصاعدًا هو القائم على رأس حركة (الوحدة العربية) وهو الذي منحها (دستورها) الجديد في (معاهدة الطائف) تلك المعاهدة التي أراد أن تكون (نجم الصباح) الذي يهتدي بنوره الوطنيون والتي افتخر بعقدها نزولًا على دعوة مفتي القدس وكبار الشخصيات الإسلامية.

ولقد أصبح مقامه ونفوذه كرئيس ديني يمتد إلى خارج نطاق حدود مملكته الواسعة. وأن زيارة ابنه الأكبر بعد عودته من رحلته في أوروبا لرؤساء العرب في فلسطين وشرق الأردن لا تخلو من مغزى عظيم. كما أن زواج الملك السعودي من ابنة الزعيم المشهور نوري الشعلان رئيس قبائل (الرولة) في الشام له شأن كبير لأنه اعتاد أن يقوي سياسته الخاصة بمصاهرة القبائل الكبيرة جريًا على سنة نبي المسلمين!

١١

بلاط يحيى بن محمد

ليست لملك اليمن «حكومة» ولكن له «بلاطًا». وهذا ما يلائم حالته ومركزه تمام الملائمة فهو ملك أوتوقراطي عاقل حازم عظيم الخبرة بالرجال الذين يعتمد عليهم ويضع ثقته فيهم والذين يختارهم لمعاونته وهو عليم بما يحاك حوله من الدسائس ويعرف طرق الوقاية منها كما يعرف كيف يقاومها ويفيد منها إلى أقصى حد ممكن.

وكثيرًا ما يعين الإمام «وزراء» ولكن هذه الألقاب التي يخلعها عليهم ليست في الغالب سوى ألقاب شرف ولا شيء غير ذلك فأحد أولاده هو وزير المالية ويعلم الناس جميعًا أن الشئون المالية في اليمن إنما يهتم بها الإمام بنفسه ويسهر عليها بيقظة وحذر كما أن ولدا آخر من أولاده هو وزير المواصلات ولسنا في حاجة إلى القول بأن حركة التنقل في اليمن محدودة إلى أقصى حد وتقوم في الغالب على ظهور البغال وفوق متون الإبل في القوافل القديمة البطيئة. أما البريد فإنه رغم نشاطه لا يزال في عهد البداية كما أن التلغراف لا يدع مجالًا للاهتمام بشأنه.

على أنه في الظروف الاستثنائية إذا ما جد الجد واقتضى الأمر اتخاذ قرارات هامة يجمع الملك مجلسًا يضم وجهاء البلاد وعلماءها وذوي الرأي فيها ممن عرفوا بالخبرة والحنكة وبعد النظر وأصالة الرأي لكي يبحثوا الموقف من كل نواحيه ولكي يشتركوا معه في تحمل المسئولية ولو أنه قد جرت عادة الإمام أن يعمل في أغلب الأحيان ما يتراءى له. فالحكومة هي الإمام والإمام هو الحكومة وهو يصدر قراراته في كل أمر من أمور الدولة جل أوهان أولًا بأول دون أن يترك لأحد غيره عناء

التعب أو التفكير ومع ذلك فإنه ليس من حق معاونيه أن يتقلدوا الوظائف بدون أن يؤدوا عملًا يوازي المرتب الذي يتقاضونه من مال الدولة. وأن ملكًا مثل يحيى بن محمد لفي أشد الحاجة إلى الرجال الأذكياء الموثوق بهم الذين يفهمون أخلاقه حق الفهم ويتوجهون إليه بإيحاءاتهم الحكيمة بدون أن يظهروا له أنها نصائح أو إرشادات والذين يعرفون كيف يجعلونه يصدر أوامره ويحملونه على تنفيذها وينظرون إلى كتفيه دون أن يثقلوا عليهما للدفاع عنه وحمايته والذين يتحلون بفضيلة الاعتدال والإنصاف.

وجدارة الإمام إنما هي في أنه فهم حقيقة هؤلاء الرجال وعرف كيف يعثر عليهم. وهؤلاء لهم أيضًا لقب «الوزراء» ولكن من العبث محاولة العثور على وزاراتهم [1] أعني دواوينها ودرجاتها البيروقراطية. أما مراكزهم فهي وسائد «الديوان» التي يجلسون عليها في حضرة مليكهم. وأما سكرتاريوهم فيؤخذون من بين الكتاب الذي يتجمعون في أبهاء (المقام!) وغرف الانتظار فيه.

ولقد استطعت بعد الجلسة الأولى التي جلستها مع الإمام التقرب من كبار الشخصيات الذين يحيطون به لأن الابتداء بالتعرف بهم يعتبر مخالفة لأبسط قواعد الآداب ونواميس اللياقة لأن واجب الضيف أن يبدأ بتحية «رب البيت» قبل أي شخص آخر. ولقد اتبعت هذه العادة من أزمان بعيدة حتى عند سفراء العرب لدى الممالك الأوروبية فإن السفير «باشا» طرابلس الغرب الذي أرسل إلى مدينة كوبنهاجن في منتصف القرن الثامن عشر رفض استقبال كبار الشخصيات الذين جاءوا لتحيته ولتهنئته بسلامة الوصول ولم يشأ أن يتحدث إلى أحد منهم قبل أن يستقبله وزير الدولة.

---

(١) الحقيقة أن لوزارات اليمن دواوين خاصة لها موظفوها وكتابها.

وفي بضع سنوات كان كل من يأتي زيارة صنعاء يضطر للبقاء في مسكنه حتى اللحظة التي يحظى فيها بشرف المقابلة الملكية فإذا كان الملك منحرف المزاج أو خرج إلى الريف أو مشغولًا بأي عمل هام من أعمال الدولة أو إذا لم يكن مستعدًا لاستقباله في الحال وجب على الضيف المسكين أن يسجن نفسه سجنًا كان يطول في بعض الأحيان ويستمر مدى أسابيع كاملة.

ولقد بحثت في بادئ الأمر عن القاضي عبد الله العمري وقابلته عند عودته من المسجد بعد صلاة العصر وكانت تحيط به جمهرة كبيرة من السادة ويسير في أثره خلق كثير من عامة الشعب ومن خلف هؤلاء «ركابي» يمسك بلجام جواده الأبيض ولا أظن أن القاضي عبد الله يحب هذه الاستعراضات أو يميل إلى هذه المظاهر ولكن جرت العادة بذلك إذ إنه لا يليق بشخصية أو بموظف كبير المقام أن يخرج في طرقات صنعاء بدون أن يكون في معيته «حرس شرف» كهذا وكلما علا مقام صاحب الوظيفة كلما زاد عدد حاشيته التي تتبعه والتي تسير في أثره أنى سار.

والقاضي عبد الله هو الذراع اليمنى لجلالة الإمام ويسميه البعض (وزير الداخلية) كما يخلع عليه البعض لقب «رئيس الوزراء» ولقد استقبلني في بهو صغير كان النور يتسلل إليه من خلال الزجاج الرخامي الذي كان يلقي ضوءًا على الكتب المصفوفة في العيون المفتوحة في الجدران العارية. ودار هذا الوزير من أجمل ما رأيته من الدور في العاصمة اليمنية ويقوم فوق سد «غيل الأسود» الغليظ إلى جانب غدير تكاد تجف مياهه طول السنة ومع ذلك فإنه عندما يمتلئ بالأمطار التي تهطل في فصل الربيع يشق المدينة إلى شقين ويعرقل حركة المواصلات وهذا ما دعا الأتراك إلى أن يقيموا فوقه قنطرة صغيرة وعندما رأى اليمنيون هذه القنطرة قد أقيمت وانتفعوا بها وجدوا أن فكرة إقامتها لا بأس بها ولا ضرر منها ولذلك تركوها حيث

هي.

لم تكن زيارتي للوزير عبد الله سوى عمل من أعمال البروتوكول لأني لما كنت أعرف مبلغ اعتدال هذا الوزير وإخلاصه لمليكه لم أشأ أن أثقل عليه أو أقدم له شيئًا من الأسئلة المحرجة التي أكسبت الصحفيين شهرة «الثقلاء» وقد كان معاليه يتحدث إلي وهو يبتسم ابتسامة فاترة لم تكن لتشجعني على الإقدام أو الجرأة أو على الإكثار من الأسئلة وكان يتكلم بصوت هادئ لا تتغير نبراته لم يرفعه لحظة واحدة طول مدة حديثنا وكان الحديث بيننا يجري بتبسط وانشراح في موضوعات شتى لا أهمية لها على الإطلاق. والقاضي عبد الله رجل فطن لبيب معتدل لا أثر فيه للتعصب يستطيع تفهم الآراء الغربية ويتقبلها قبولًا حسنًا وإذا كان في أثناء حديثه يمسك بكلتا يديه قبضة سيفه المتدلي فوق بطنه من حزامه الجلدي الموشي بالذهب فإنه لم يكن يفعل ذلك إلا لأنه لم يتعود الاستعانة في كلامه بالحركات والإشارات كما يفعل البعض عندما يتكلمون. ولما سألته عن الأخبار الخاصة بالموقف اليمني أجابني بأني أستطيع أن أجد كلما أريد معرفته في هذا الشأن عند وزير الخارجية.

أما ذلك الوزير فقد سبق لي أن رأيته في «الديوان» الملكي ولما كان الملك يتحدث إلي عن صوم رمضان بدرت منه عبارة ابتسم لها المجلس كله إذ قال لي وهو يغمض طرف عينه: إن الصيام فيه فائدة للصحة ولو أن هناك أحد الأتراك يرى أن فيه شيئًا من القسوة والصرامة. ولما كنت أتتبع نظرات الجالسين أمكنني أن أفهم بسهولة أن «أحد الأتراك» هذا الذي قصده المليك إنما هو راغب بك. وهو رجل لطيف وردي اللون تحيط بوجهه لحية بيضاء مستديرة وكان يجلس إلى جانبي وهو يخفي كلتا يديه في أكمام ثوبه الفضفاضة ونظر إلي هو أيضًا بطرف عينه وقال: هذا هو ما اعتقده!!

أما البيت الذي يسكنه وزير الخارجية فقد سكنه الإمام علي إثر عودته إلى صنعاء

قبل أن يبنى «بيت الشكر». وفي هذا البيت يستطيع الإنسان -ولله الحمد- أن يجلس فوق مقاعد مريحة وأن يتحدث كما يشاء بغير حاجة إلى مترجمين.

ووزير خارجية اليمن هو أحد الدبلوماسيين الأتراك السابقين كان قد أرسل إلى اليمن في مهمة خاصة بعد أن قام بوظيفة قنصل في عدة مدن من مدن آسيا وأوربا ولما جاء إلى اليمن ارتبط بأوثق روابط المودة والصداقة مع الإمام يحيى الذي استبقاه إلى جانبه بعد أن أخلى الأتراك البلاد اليمنية ونزحوا عنها ولقد بقي راغب بك من ذلك الوقت إلى الآن عند صديقه ولا يوجد من هو أصلح منه في اليمن في الوقت الحاضر للقيام على إدارة الشئون الخارجية في هذه الحكومة.

ولقد توطدت الصداقة بين راغب بك والإمام مع مرور الزمن وخاصة بعد أن زوج ابنتيه لولدين من أولاد الإمام. وراغب بك رجل مثقف واسع الإطلاع لطيف المعشر دمث الخلق لا يمتاز الغربيون عنه في شيء سواء في عاداته أو في طباعه. وتحت الثوب اليمني المفتوح من الأمام الذي يرتديه ينتهي قميصه المخطط بثنية حول عنقه تشبه الياقة ولا ينقصه إلا «رباط الرقبة» حتى يوجد توفيقًا جديًا بين اللباس الآسيوي واللباس الأوروبي. هذا ولم تكن السنون الطويلة التي قضاها راغب بك في اليمن لتخمد فيه الحنين إلى أوربا وقد حدثني بسرور وصارحني برغبته الشديدة وعزمه على القيام برحلة إليها في أقرب فرصة على أن تكون أول مدينة ينزل فيها هي نابولي ثم يعرج على روما لأنه يريد أن يستعيد في نابولي ذكريات سنية الخضراوات عندما بدأ أولى خطواته في السلك القنصلي وفي الثانية يريد التعرف إلى كبار شخصياتها وزعمائها.

ويظهر راغب بك حبًّا صادقًا لليمن ورغبة شديدة للعمل على إسعاده دون أن يبدو عليه التحفظ أو الاحتياط الذي يبديه في أحاديثهم أهل هذه البلاد أنفسهم

فيقول: «إننا نعمل على ترقية هذه البلاد المحبوبة وفي هذا جهد شاق ولكنه شائق لذيذًا قدم عليه بشغف ولكن للوصول إلى هذا الغرض يجب التغلب على الكثير من المصاعب وتخطي الكثير من العقبات وأولى هذه العقبات هي المقاومة العنيفة والعراقيل التي يضعها المتعصبون في طريق كل تجديد. وليس من شك في أنه يجب علينا أن نعمل هنا الكثير لأن كل شيء محتاج إلى إصلاح بل يجب خلقه من جديد. وإن إنشاء الطرق التي قطعتموها والتي تربط صنعاء بالحديدة وعدن أعمال ذات أهمية عظمى قمنا بها ولكن السير فيها لا يزال شاقًّا متعبًا بعض الشيء ولا يمكن القول بأن من يطرقونها كثيرون ولكنها على كل حال تشير إلى بداية عهد جديد له ما بعده فاليمن المترهب قد أخذ يشق لنفسه الطريق للمشاركة المدنية وسوف يكون تقدمه ونجاحه اليوم أسهل وأسرع من ذي قبل.

ولقد كان الإمام ولا يزال عدوًّا لاتفاقات الإقامة لأنه يرى أن اليمن بسبب طريقة نظام حياته الخاصة وتقاليد شعبه وبسبب أحواله وظروفه ليس في حالة تسمح له باستقبال الممثلين الأجانب أو بإرسال ممثلين إلى الخارج في الوقت الحاضر على الأقل إذ لا تزال تنقصنا الدرجات والوظائف لنظامنا القنصلي والدبلوماسي ولا يجهل ملكنا ما يعلقه كل بلد حر من الأهمية العظمى على علاقاته الدولية وإني لعلى يقين من أن هذه المسألة يمكن إعادة بحثها معه في أقرب فرصة ولقد بدأنا في إدخال إصلاحات جدية على طريقة الحكم في بلادنا بقصد التخفيف بقدر المستطاع من الأعباء الملقاة على كاهل الإمام والتي زادت على حدود طاقته ولجعل الوسائل الإدارية أحدث وأكثر مرونة مما هي الآن كما يجب أن نعمل على تقسيم العمل الإداري وتوزيعه بإنشاء درجات وإدارات ذات رؤساء مسئولين».

ومن المحاولات التي أشار إليها راغب بك في حديثه والتي عملت لجر بلاد

اليمن خارج دائرة القرون الوسطى يمكننا أن نذكر على سبيل المثال ما أدخل من التجديد على النظام القضائي وأهم نقطة في هذا الموضوع هي الخاصة بالأجانب الغير المسلمين. ويهتم الإمام كثيرًا بالأجانب المقيمين هنا ويكلف عساكره بالعناية بمساكنهم وبالسهر على راحتهم وطمأنينتهم كما أنه يقدم لهم حرسًا خاصًا يصحبهم في روحاتهم وغدواتهم. ولقد لقيت أنا نفسي لطفًا كبيرًا ومجاملة عظيمة من جانب السلطات اليمنية وعطفًا كبيرًا من جانب الشعب.

وقد حدث هنا أن حكم القضاء بإدانة مسلم من جنسية أجنبية وهو محتال شهير ونصاب عالمي ومغامر كبير له عهد طويل وسوابق عديدة في النصب والاحتيال وفي الفضائح التي ارتكبها في كل بلاد الشرق وقد اتصل بأوثق الصلات بالسيد إدريس السنوسي أمير برقة السابق وزوجه من ابنته ولكن لم يلبث هذا أن اختلف معه وطلق ابنته ودخل معه في قضايا طويلة.

ولما قدم هذا الرجل إلى بلاد اليمن ولم يكن أحد يعلم من أمره شيئًا استقبل استقبالًا حسنًا ولكنه استغل هذا الاستقبال الذي قوبل به والحفاوة التي لقيها لكي يخدع بعض الإنجليز المقيمين في مصر وأفهمهم بأنه حصل من الإمام يحيى على امتيازات عظيمة منها امتياز بالبحث والتنقيب في أراضي اليمن واستغلال مناجم البترول فيها. وسرعان ما تألفت في القاهرة شركة برأس مال كبير لاستغلال هذا الامتياز وقد نجح هذا المحتال في تسلم أموال طائلة منها بحجة أنها تلزمه- كما هو معلوم في مثل هذه الحالات- «لتزييت عجلات كثيرة» ولإقامة بعض الحفلات ولتقديم هدايا لجلالة الإمام ورجال بلاطة ووزرائه. ثم جاء اليوم الذي اكتشفت فيه ألاعيبه وفضائحه وهكذا استقبل «القصر» (الذي فيه سجن صنعاء) ضيفًا «فوق العادة» يختلف كل الاختلاف عن كل من فيه من «النزلاء».

وقد تركت المحكمة للمرة الأولى عند البدء في محاكمة هذا النصاب أسلوبها العادي وسارت على طريقة أخرى تماثل الطرق المستعملة في المحاكم الأوربية. وقد فكر القضاة أيضًا في السماح للأوربيين المقيمين في صنعاء بحضور هذه المحاكمة. ولكن راغب بك أخبرني بأن بعض رؤساء الدين اعترضوا على ذلك لأن المسألة خاصة بمحاكمة أحد المسلمين.

أما المحاكمة وجميع ما حدث في الجلسة ونص الحكم فقد نشر كله في الجريدة التي تصدر في مدينة صنعاء.

ولكن كيف ذلك:... هل توجد جرائد في اليمن؟

حقًّا إن الشيء الوحيد الذي لم ألاحظ في العاصمة اليمنية والذي لم يخطر لي ببال هو أنه تصدر بها جريدة. ولي العذر في ذلك لأن جريدة (الإيمان) إن هي إلا جريدة صغيرة (تصدر مؤقتًا مرة في الشهر) رغمًا من أنها سلخت من عمرها ثمان سنوات.

ولقد استطعت فيما بعد أن أرى بدهشة عظيمة في (مفرج) عامل صنعاء اللطيف المزدحم بالزوار العدد الأخير من هذه الجريدة اليمنية. وكان هذا البهو الكبير مكتظًّا بجمهور من السادة الأشراف والأعيان الذين كانوا مضطجعين فوق الوسائد المصفوفة حول جدرانه وكل منهم يحمل معه مبسمة وحزمة صغيرة من أوراق (القات). وكانت ترى فوق المائدة الواطئة التي كانت تتوسط المكان عدة ترجيلات مكركرة تتجه بخراطيمها الجلدية الطويلة المتعددة الألوان إلى كل الجهات. وكانت إحداها المزدانة بشرابات حمراء كثيرة ولا يقل طول خرطومها عن الخمسة الأمتار تحمل الدخان إلى أبعاد ركن من أركان المفرج.

أما الشخص الذي كان يتحدث أكثر من غيره في هذا الجمع والذي كان يقف في

أثناء الكلام وقفات صغيرة ريثما يبصق من آن لآخر في المبصقة النحاسية فإنه كان قاضيًا من قضاة اليمن وكان يغمغم في حديثه بصوت غير مفهوم. ترى هل يحدث هذا من مضغ القات؟

لقد كان الرجل يحدث الحاضرين عن السياسة الإنجليزية تجاه مسألة الأماكن المقدسة ولكنني كنت في أثناء هذا الحديث في شغل عنه وعن حديثه بالنظر في صفحات (جريدة الإيمان) الأربع التي كانت حروفها الزخرفية تلهيني وتسبب لي الحيرة التي يحس بها الأميون تجاه آية كتابة. على أنى استطعت أن أفهم بفضل بعض من كانوا جالسين إلى جانبي أن مقالها الافتتاحي كان تلخيصًا للموقف الدولي الذي كانت تليه (الحوادث المحلية) بما فيها من مقابلات الإمام وأخبار تعيينات الموظفين وتنقلاتهم وترقياتهم ثم الإشارة إلى قدوم القادمين وسفر المسافرين من كبار الشخصيات وذوي الحيثية ثم (الوفيات) ثم تلي ذلك كله أخبار بعض (الحوادث السوداء).

أما الاشتراك السنوي في هذه الجريدة فهو ريالان في اليمن وما يقرب من نصف جنيه إنجليزي في خارج البلاد. وتطبع جريدة (الإيمان) في المطبعة الوحيدة الموجودة في اليمن وهي مطبعة صغيرة كان قد أنشأها الأتراك في أيام حكمهم للبلاد. ومدير الجريدة ومحررها المسئول هو «القاضي عبد الكريم أحمد مطهر» الذي هو في الوقت نفسه وزير العدل في الحكومة اليمنية.

ومن المحتمل كثيرًا أن الإنتاج للحكومة اليمنية الفرصة قريبًا لإنشاء إدارة للرقابة على الصحف في اليمن!!

١٢

أحمد سيف الإسلام

اهتم الإمام يحيى اهتمامًا كبيرًا بإيجاد ذرية كبيرة فله اليوم أربعة عشر ولدًا ذكرًا وهذا ليس معناه أنه لم يرزق إناثًا ولكن لم تجر العادة بأن يتحدث الإنسان في اليمن عن النساء لأن هذا أمر غير مرغوب فيه وربما كان في ذلك شيء من المبالغة ولكنني أظن أننا نحن الغربيين نبالغ كثيرًا في تحدثنا أكثر مما يجب عن النساء.

هذا وإن رواة الأخبار والمحدثين الذين يكثر عددهم في «المفارج» اليمنية والذين لا يخلو عنهم مجلس يخفضون أصواتهم إذا حدثوك عن حريم الملك يحيى. وقد جرت عادة الإمام عندما يريد التزوج من زوجة جديدة أن يسرع بطلاق إحدى زوجاته الأخريات لكي لا يخالف نصوص الشريعة الإسلامية التي لا تبيح الزواج من أكثر من أربع نساء. أما مطلقة «المتوكل على الله» فيجب أن تبقى في خدرهما بقية أيام حياتها بدون أن تتزوج من غيره على أن الإمام لم يستعمل حقه في الطلاق على إطلاقه كما يفعل ابن السعود الذي تزوج من نساء كثيرات رغبة منه في مصاهرة أكبر عدد من القبائل العربية الكبيرة الشأن وذلك لغرض سياسي رمى إليه وهو تقوية مركزه وشد إزره بهذه المصاهرات.

وفي داخل نطاق «المقام» على مقربة من المقصف الذي يجلس فيه الإمام لمشاهدة العرض العسكري يقوم «برج الأمراء» وهو بناء عجيب الشكل كله شرفات ومصاطب ظريفة وقد أعد لإقامة أبناء الإمام الذين ليس لهم مسكن ثابت في العاصمة. وقد أقام فيه الأمير أحمد عند عودته الأخيرة إلى صنعاء.

أما عودة ابن الإمام البكر فقد كانت حادثًا اهتم به الرأي العام اليمني كل الاهتمام وكان حديث الخاصة والعامة على السواء لأن سيف الإسلام أحمد يعيش من عدة سنوات بعيدًا عن العاصمة في الشمال في مدن حربية قاسية احتفظت فيها القبائل الزيدية بعاداتها القديمة كاملة غير منقوصة فأقام أولًا في «حجة» التي تتكون من عدد من المباني الحصينة وتشرف من ارتفاع ألف وخمسمائة متر على منحدرات الهضبة فوق مرتفع مخروط الشكل. ويمكن القول بأن هذه المدينة الحصينة ذات الأهمية السياسية والحربية ما هي ألا حصن كبير وتبدو الحياة فيها كأنها الحياة بداخل إحدى الثكنات وعندما يحضر أحد الأجانب لزيارتها ويقترب من بابها ينفخ العساكر في أبواقهم ولا تفتح مصاريع أبوابها إلا عندما تعلن القلعة بدق الطبول صدور التصريح بالدخول.

انتقل الأمير أحمد من هذه المدينة إلى (صعدة) وهي أيضًا مركز عظيم ذو أهمية حربية وتجارية عظمى نظرًا لوقوعها على حدود نجد وقد كان الأمير مغتبطا بإقامته بين رجال حاشد وباجل الأقوياء الشكيمة الشداد المراس الذين تتألف منهم قبيلة من أعظم القبائل الزيدية وأكثرها عددًا تستطيع أن تقدم لليمن في أوقات الحرب خمسين ألفًا من الجنود الأقوياء والمحاربين الشجعان.

والأمير أحمد رجل قوي الشكيمة شديد البأس ومحارب من الدرجة الأولى يحب النضال ويميل إلى القتال. وعندما أريد إخضاع قبائل الزرانيق الثائرة في عام ١٩٢٨ اشتد غضبه عندما سمع أن الإمام قد عين غيره لقيادة الحملة في أول الأمر وما زال يلح على أبيه حتى ولاه القيادة. وكان المشروع صعبًا والمهمة ثقيلة لأن قبيلة الزرانيق شديدة المراس قاوم رجالها الأتراك زمنًا طويلًا وكانوا لتعصبهم لمذهبهم الشافعي يرفضون مد أيديهم لمصافحة الزيديين سكان الهضاب والمرتفعات. كما أن وجودهم

في (بيت الفقيه) كان يعرقل المواصلات بين الحديدة ومخا فضلًا عن إقامتهم على الساحل كانت تشجعهم على أن يكون في أغلب الأحيان من قطاع الطرق والقرصان.

قاد الأمير أحمد رجاله الجبليين في ذلك السهل المحرق ضد قبائل الزرانيق المتوحشة ورجالها الأنصاف العراة الذين تعودوا احتمال العواصف الرملية والقتال في الراضي الجرداء القاحلة واستطاع بعد قتال عنيف معهم أن يقهرهم ويبدد شملهن وأن يقود رجاله إلى النصر وعاد إلى صنعاء ظافرًا منصورًا واستقبل عند عودته استقبالًا منقطع النظير واحتفل به احتفالًا كبيرًا لم تشهد عاصمة اليمن مثله على أنه لم يبق فيها طويلًا. وقد قيل إذ ذاك بأنه قام بينه وبين والده شيء من سوء التفاهم كان من الممكن أن يتفاقم ويزداد في أثناء الخلاف مع الحجاز حول طريقة الدفاع عن البلاد التي ارتأى الإمام السير عليها وبسبب الامتيازات الكثيرة التي منحت للملك ابن السعود.

وإذا كان حقًّا ما قيل عن هذا الخلاف وأغلب الظن أنه انتهى الآن ولم يبق له أثر لأن الإمام قد حدثني عن ابنه الأكبر بكلمات تنم عن عظيم حبه له وعن إعجابه بشجاعته وبشدة اهتمامه بأمره لأنه هو المنتظر أن يخلفه على عرش اليمن وعلى إمامة الزيديين.

وفي الحق أن الزيود يجهلون نظام «ولاية العرش» ولا يعترفون به ولا عهد لهم به من قبل؛ لأنهم يختارون ملكهم وينتخبونه. ويحمل الأمير أحمد لقب (سيف الإسلام) كبقية إخوته العديدين كالأمير حسن وكالأميرين علي وعبد الله اللذين ربما كانا أكثرهم حركة ونشاطًا وأوسعهم شهرة بين سكان صنعاء وكالطفلين محسن وإسماعيل اللذين لا يزالان يلعبان فوق ركبتي أبيهما الوقور الحنون.

ولا يبدو أن الإمام يفضل بعض أولاده على بعض وإنما كان يقال فيما مضى: إنه كان كثير الاهتمام بالأمير محمد ثاني أنجاله وأنه كان يؤثره على أخوته وكان هذا الأمير دمث الخلق متوقد الذكاء نشيطًا مؤدبًا واسع الاطلاع وكان قد أرسله والده في عام ١٩٢٨ إلى مدينة روما لرد الزيارة الرسمية التي قامت بها البعثة الإيطالية لصنعاء. وعندما غرق في مياه الحديدة وهو يحاول إنقاذ صديق له سقط في الماء وكان على وشك الغرق رثاه الإمام يحيى بقصيدة عصماء تفيض حزنًا وأسى. على أنه لا يلفت النظر بين أبناء الإمام الموجودين في قيد الحياة أحد أكثر من الأمير أحمد. وليس صحيحًا ما يذيعه البعض من أن هذا الأمير ما هو إلا جندي شرس سيء الخلق قاسي القلب. ومن المحتمل أنه كان لصلابته في الماضي بعد المظاهر ولكنه بمضي الزمن ومع تقدمه في السن بعد أن أربى على الأربعين قد تهذبت أخلاقه وتغير الكثير من طباعه. وهو يهتم كل الاهتمام بالمسائل الحربية التي يكرس لها معظم أوقاته والكثير من جهده وتفكيره. هذا على أنه لا يمكن القول بأن أفكاره ليست منصرفة إلى غيرها من المسائل وربما كان ينقصه بعض «الإحساس بالعالم» الذي يقال بأن أخاه محمدا كان قد اكتسبه بسفره إلى إيطاليا لأنه رغم كل ما قيل فيه رجل واسع الإدراك متوقد الذهن حاضر البديهة إذ إنه عندما حضر إلى اليمن العالم الأثري الشهير «كارل راتينس» لإتمام اكتشافاته الأثرية بالوسائل القليلة التي كانت بين يديه ربما كان الأمير أحمد هو اليمني الوحيد الذي تتبع أعماله باهتمام. ثم أنه أخذ بعد ذلك في استكمال أبحاث العالم النمساوي في «غيمان» وفي «نخلة» بنفسه حتى كشف عن أشياء عظيمة القيمة منها تمثال حميري من البرونز جميل الشكل متقن الصنعة إلى حد بعيد.

ولما عاد على صنعاء ترأس اللجنة التي شكلت لإدخال الإصلاحات على نظام الحكم في اليمن. وقد وضعت هذه اللجنة الأسس لنوع من الدساتير سوف يشكل

بمقتضاه عدد من «المجالس» في البلاد ولسوف يكون في اليمن «مجلس سياسي» لبحث الشئون الداخلية والخارجية «ومجلس حربي» يضم كبار قواد الجيش «ومجلس تشريعي» يتألف من العلماء الزيود والشوافع على السواء للنظر في المسائل القضائية. وسوف توضع ميزانية للدولة وسيعاد تنظيم المحاكم الشرعية بإنشاء محكمة للاستئناف ومحكمة للنقض والإبرام كما ستنشأ لجنة لتنفيذ القوانين. وقد تقرر أيضًا إعادة النظر في كافة الوظائف الإدارية وأبعاد الموظفين المرتشين وغير الأكفاء الذين يتولونها وزيادة كفاية الجيش ومقدرته بفرض الخدمة الإجبارية على كافة أفراد الشعب وبالحصول على أسلحة حديثة ونشر التعليم وإذاعته بين جميع طبقات الأمة وتنظيم الإدارة المالية وتسهيل المواصلات وإصلاح الطرق واتخاذ التدابير اللازمة للقيام بإحصاء عام لسكان البلاد.

ولقد كان من شأن عودة سيف الإسلام أحمد إلى صنعاء ومسألة إدخال الإصلاحات المقترحة أن جعلت «السادة» يفرضون كل الفروض فمن قائل إن الإمام قد تعب من كثرة مشاغله وأنه يفكر في قسط أوفر من الراحة في قصره الجديد الذي شيده أخيرًا في «الروضة» ومن قائل: إن الإمام يرمي إلى أن ينتقل تدريجيًا إلى يدي أكبر أبنائه إدارة لبلاد وهكذا يتيح الفرصة لسيف الإسلام أحمد للقيام بتجاربه وتقوية مركزه وتثبيت هيبته في النفوس ولكي يعده لمستقبل عظيم ينتظره.

ولمرض الإمام نصح الرؤساء الزيديين الذين يتحتم أخذ آرائهم فيمن يخلف الإمام بأن ينتخبوا الأمير أحمد فكان منهم واحد أجاب بقوله: إنه لم يحن الوقت بعد للكلام في مثل ذلك. وقد أثبتت الحوادث أن ذلك الرجل الذي قال ذلك كان على حق فيما قال. على أن الرؤساء والزعماء الآخرين وافقوا على انتخاب الأمير أحمد إمامًا لليمن ولكنهم أضافوا أحد التحفظات بقولهم: «إذا ثبت استحقاقه وجدارته

لهذا المركز».

ومما لا شك فيه أن هذا التعيين له قيمة نسبية لا غير وعلى الأخص من الوجهة القانونية لأنه يوجد في الوقت المناسب مرشحون آخرون من المحتمل أن يظهروا بعد موت الإمام ولست أدري إذا كان هناك من أنجال الإمام الآخرين من يتطلع إلى هذه الخلافة فإن البعض منهم لا تنقصهم الشجاعة والكفاية والذكاء وقد استطاعوا أن ينالوا ثقة الشعب وعطفه ومحبته بأخلاقهم الكريمة وحسن سلوكهم وأدبهم وكرمهم ولطف معشرهم وبتداخلهم في كثير من الظروف لدى والدهم لمصلحة الكثيرين من مواطنيهم من كافة الطبقات.

هذا فضلًا عن أن اليمن لا تنقصه الأسر الشريفة العريقة في النسب والتي تفخر بانتسابها لعلي بن أبي طالب وفاطمة والتي كان من أفرادها بعض ملوك الزيديين والتي لا يزال في مقدورها أن تمد مملكة الزيديين بملوك آخرين. وصفوة القول إنه يوجد في اليمن أو سوف يوجد حتمًا من يتوق لخلافة الإمام على عرش اليمن ومنافسة الأمير أحمد. وتلوك السنة اليمنيين في الوقت الحاضر أسماء أكثر من شخص قد يرشحون أنفسهم لهذا المركز. ومن العجيب أن يتحدث الناس عن هذا الانتخاب كما لو كانوا يتحدثون عن أمر أكيد سوف يتم اليوم أو غدًا أو بعد غد على أن الإمام يحيى لا يزال –والحمد لله– قوي البنية أخضر العود صحيح الجسم موفور العافية.

ولما عاد سيف الإسلام أحمد إلى العاصمة أخذ يشمل بعنايته جيش البلاد الذي يعتقد أن فيه أقوى دعامة للإمامة وأمتن ضمانة للاستقلال. وقد أحبه الجنود وضباط الجيش وقواده ولم يكن ذلك لشجاعته فحسب بل لأنه أوحي إلى أبيه بزيادة مرتبات الجند من خمسة ريالات إلى ستة في الشهر ولأنه أخذ يهتم بمسألة تحسين

مرتبات الموظفين. على أن التعليم والتسليح قد بقيا بعد حوادث عام ١٩٣٤ كما كانا قبلها دون تغيير أو تعديل.

ولم يكن للخلاف مع الحجاز عاقبة وخيمة أو نهاية محزنة ولله الحمد ولكنه أظهر بجلاء أن البلد الذي يريد أن يعيش حرًّا مستقلًا مرهوب الجانب لا يجب أن يبقى دائمًا كما هو الآن. أو كما كان دائمًا فإن التعصب الوهابي رغم أنه يسبب الكثير من المصاعب للحكومة السعودية ويقيدها ببعض القيود لم يمنع الملك ابن السعود من تمهيد الطرق في قلب الصحراء ومن مد جيوشه بالوسائل والآلات الميكانيكية الحديثة. والعساكر اليمنيون من خيرة الجنود وأكثرهم شجاعة ويمتازون بفضيلة المقاومة وسرعة السير والصبر على احتمال المشقة ولكن تسليحهم لا يزال إلى اليوم أوليًّا وفي حاجة إلى الاستكمال بينما وصلت الجيوش السعودية إلى الحديدة في أثناء الخلاف الأخير في ثمانمائة سيارة مسلحة وكانت تحت أيديها دبابات ضخمة وسيارات مصفحة ومتراليوزات ميكانيكية. وهذه كلها أشياء تدعو إلى النظر والتبصر ويجب أن تكون فيها عبرة وموعظة!!

واليمن ولو أنه لا يزال في اعتكافه وعزلته عن العالم الخارجي إلا أنه يمكن القول بأن الأفكار الحديثة بدأت في التغلغل فيه وليس من السهل في هيئة اجتماعية مثل هذه تحديد الرأي العام واتجاهاته بدقة ولكن يبدو للإنسان أنه لا يكون مخطئًا إذا ما أكد أن عقيدة الجمود المقدسة ليست الآن راسخة كما كانت في ضمير الشعب اليمني.

ولقد كان من حكمة الإمام وبعد نظره العمل على طمأنينة الذين من الممكن تسميتهم باسم المحافظين أي الزيود المتعصبين الذين لا يرون في كل عمل من أعمال التجديد إلا الخطر والخراب. ولكن يوجد الآن من أصبح يرى الخطر كل الخطر في

عدم القيام بهذا التجديد في أسرع وقت وفي بقاء اليمن ملقيًا مراسيه في الماضي مقيدًا بأغلال تقاليده القديمة كما يوجد الآن من أصبحوا يقولون في صراحة أنه حانت الساعة لإبدال التعصب الديني بشيء آخر يختلف عنه تمام الاختلاف وبأسطورة أخرى جديرة بأن تقوي البلاد وتسير بها نحو مقدرات جديدة وأغراض أخرى نبيلة ومستقبل باهر عظيم.

ومما لا شك فيه أن اليمنيين حتى عندما يفتخرون بأنهم أحرار من كل قيد يرفضون بإباء وشمم التشبه بالعالم الخارجي أي عالم غير المسلمين أو التطلع لشعوب أوروبا وأمريكا كما يتطلعون للشعوب العربية. وليس هذا رأس سواد الشعب بل هو رأي الذين يشعرون برغبة شديدة في التقدم والارتقاء تلك الرغبة التي تبدو فيما يقومون به من أعمال عظيمة وفي تبدل أفكارهم وعاداتهم تبدلًا أكيدًا ولو أنه بطيء وهذا ما يجعلهم في غاية الحيرة والقلق والتردد.

وفي الحق أن الأجانب قد وضعوا أقدامهم في البلاد العربية الأخرى وحتى الحجاز نفسه قد أصبح يفكر في منح امتيازات باستخراج البترول من بلاده وبإنشاء طرق للسيارات لجماعة من الممولين الأمريكيين على أن اليمن يستطيع أن يفخر بأنه بقي حرًّا من أي نوع من أنواع التبعية حتى ولو كانت تبعية مقنعة وبأنه لم يقبل في داخل بلاده أمثال لورنس أو فيلبي وهذا في الحق شيء جميل ولكنه لا يحل المشكلة في شيء.

ويعيش الوهابيون في صحراوات شاسعة جرداء كثيرة الأقذار ولكنهم عندما يتحدثون عن المسافة بين أية مدينة من مدنهم وأخرى يذكرون الساعات التي تستغرقها السيارات في السير بين المدنيتين. أما اليمنيون الذين يعيشون في بلاد خصبة التربة ذات ثروة واسعة ويمكنهم أن يتحدثوا إليك عن بلادهم التي فيها

الذهب والفضة والنحاس والحديد والأحجار الكريمة والبترول والأملاح المعدنية والطلق والبلور الصخري وغير ذلك فإنك إذا ما سألتهم عن الزمن الذي يقطعه المسافر من صنعاء إلى تلك الأماكن التي توجد بها تلك الأشياء النفيسة قدروا لك المسافة بالأيام التي تنقضي في السفر على ظهور الإبل!

ولقد كان الأحرى باليمن الذي يسير وحده بدون أية وصاية من أحد ومن أي نوع أن يصير بسبب ثروته العظيمة واستقلاله التام عاملًا نشيطًا نافعًا من عوامل الاقتصاد العالمي. وقد وكل الزيود الإمام يحيى في عام ١٩٠٤ وألقوا على كاهله واجبًا عظيمًا قام به خير قيام على أن هناك واجبًا آخر لا يقل أهمية أو صعوبة عن الواجب الأول وهذا الواجب سوف يلقى على عاتق خلفه العظيم «سيف الإسلام أحمد» للقيام به وأكبر الظن أنه سوف يكون عند حسن ظن الجميع وما ذلك عليه بعزيز...

١٣

مصيف الإمام يحيى

عندما يبرح الإمام عاصمة ملكه لقضاء شطر من أيام الصيف في قصره الملكي في «حجة» ينتقل معه كل رجال بلاطه وحاشيته ويأخذون في السير برفقته ويخرج هذا الموكب اللجب من باب كبير مزين بكثير من الزخارف والتخاريم يفتح في سور صنعاء — في جلبة وضوضاء تصم الآذان إذ ينفخ عساكر الحرس من فوق الأسوار في أبواقهم ويوقعون نشيدًا لا بأس به فيه الشيء الكثير من أنغام نشيد رواية «عايدة» الشهير بينما تصيح الجماهير صياحًا عاليًا ويأخذ رجال «العكفة» (الحرس الخاص) في أثناء رقصاتهم التوقيعية في إنشاد الأغاني والقصائد في مدح مولاهم العظيم بكل ما أوتوا في أصواتهم وحناجرهم من قوة.

وتتقدم هذا الموكب عربة المليك وهي تترنح في سيرها وتتمايل ذات اليمين وذات الشمال فوق الطرقات الغير المستوية بينما يسير على كلا الجانبين الأمراء والوزراء وأعيان البلاد وهم ممتطون جيادهم العربية الأصيلة. كما يسرع عساكر الحرس بالجري على أقدامهم ويلي ذلك حشد كبير من البغال المطهمة المسرجة بسروج حمراء وخضراء هي «ركائب» السادة وكبار الموظفين والأعيان والكتاب ثم يسير بعد ذلك رتل طويل من حمير الخدم تحمل على ظهورها النرجيلات الفخمة المزركشة ثم يلي ذلك كله عدد من الجمال المحملة ويسير في أثر كل هؤلاء جمهور غفير لا عد له ولا حصر.

هذا وتكون قد قامت من فناء «القصر» في الليلة السابقة قافلة عجيبة عزلت

شخصياتها الهامة في مقصورات (الحريم) السرية المحجوبة. وهؤلاء هن نساء محجبات لا تصل إليهن الأنظار وأطفال صغار يكون بعد أن انقطع عليهم لذيذ الرقاد وعدد من الجواري المشاغبات من سمراوات وبيضاوات وكلهن عاليات الصوت شغوفات بالجدل محبات للخصام. كما تكون الجمال قد نقلت عددًا لا يستهان به من الحقائب والصناديق المنقوشة بنقوش هندسية وزخرفية متعددة الألوان تبهر العيون وتحير الألباب.

وقد جرت نساء (المقام) على نظام شديد الصرامة في معيشتهن فهن يقرن دائمًا في خدورهن ولا يفارقن مساكنهن إذ أنه قد خطر عليهن كل اتصال بالعالم الخارجي وهن لازلن في التاسعة أو العاشرة من أعمارهن. وعندما يضطررن للسفر أو الانتقال من مكان إلى مكان يقمن برحلاتهن في أثناء الليل وفي غير الليالي المقمرة ويسرن في حيطة وحذر كي لا يراهن إنسان كما لو كن مقبلات على ارتكاب إحدى الحرمات.

ولكن ألا يكفي القناع الكثيف الذي يغطين به وجوههن؟

أما أسفار الإمام فإنها تكون على العكس من ذلك تمامًا في وضح النهار لكي تتاح الفرصة للشعب اليمني للابتهاج والفرح بمليكه ولكي يحظى بشرف توديعه وهو ذاهب لقضاء بعض الوقت للراحة والاستجمام وتبديل الهواء في مصيفه الجميل.

وصنعاء مدينة ذات مناخ معتدل وتمتاز عن غيرها من المدن الأخرى بطقس جميل في كل فصل من فصول السنة ولا يعرف أهلوها درجة الحرارة المرتفعة التي تتلظى فيها بلاد تهامة المحرقة. وتقع العاصمة اليمنية على ارتفاع خمسين وثلاثمائة وألفي متر عن سطح البحر وتبعد بمقدار خمسة عشر درجة عن خط الاستواء وهي غنية

بما فيها من المزروعات اليانعة فأنى سار الإنسان فيها أو حولها لا تقع عيناه إلا على حدائق غناء ومروج فيحاء وبساتين نضرة كما أن المياه التي تجري تحت أراضيها غزيرة وأرضها ومناخها يصلحان لكل نوع من أنواع الزراعة. وفي الحق أنه ليست هناك أية حاجة تدعو الإنسان لأن يهجر في فصل الصيف هذه المدينة المريحة التي تنقضي الحياة فيها على أحسن ما تكون والتي فيها كل ما يجلب البهجة والسرور والانشراح ولكن ماذا نقول والتصييف عادة قديمة ونظام جرى عليه الناس من قديم الزمان؟

وإذا كانت هذه المدينة لطيفة فاتنة فإن ضواحيها ألطف وأفتن وفيها سماحة وبهجة يعجز القلم عن وصفها ولا أدري إذا كان شعراء اليمن قد شبهوا صنعاء بما حولها من سهول خضراء ومروج يانعة بلؤلؤة ثمينة تطل من أصدافها وإذا كان قد فاتهم هذا التشبيه فإن في هذا ما يدهش كل الدهشة إذ إنه في ذلك الزورق الأخضر العظيم المحوط بالمرتفعات والهضاب العالية يبدو عدد من القرى الضاحكة الباسمة التي يستهوي منظرها الألباب ومن هذه القرى قرية «الوادي»[1] التي كان يقصدها في العهود الماضية أئمة اليمن لقضاء شطر من أيام الصيف في ربوعها وتبعد هذه القرية اثني عشر كيلو مترًا عن العاصمة إلى جهة الغرب وكان لهم فيها قصر فخم[2] فسيح الجنبات صعب المرتقى شيد فوق أكمة عالية من الصخور تقف بمفردها وسط السهل كأنها بناء فرعوني عظيم وكانوا يمنعون أنفسهم في هذا القصر بمشاهدة السهول الخضراء والمرتفعات العالية التي يظهر فيها تنضيد الأحجار وتصفيفها فوق بعضها والغابات الشاسعة الجميلة التي يسهل فيها صيد الأرانب

---

(١) هو وادي ضهر.

(٢) وقد أصلح هذا القصر وجدده من جديد حضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى ملك اليمن.

البرية والحجلان كما ترى منه الحدائق الفخمة والحقول الناضرة الممتدة على طول جنبات ذلك الوادي الفياح ولكن حدث أن تسلق بعض الثوار في أحد الأيام أسوار ذلك الحصن الصخري المنيع وقتلوا الإمام غيلة [1].

ومن ذلك الوقت صرف النظر عن التصييف فيه وكان هذا أخر عهده بملوك اليمن فلم يطرقه اليوم غير اليوم والغربان ولم يلبث أن بدأ في التهدم والانهيار حتى لم يبق فيه في الوقت الحاضر سوى جدرانه العظيمة القائمة التي لا تزال فتحات نوافذها تشعر الناظر إليها بالرهبة وتدخل على قلبه الانقباض ويخيل أنها لا تزال باقية للتذكير بذلك الحادث المشئوم الذي وقع لذلك الإمام المسكين!

انتقل مصيف أئمة اليمن بعد ذلك إلى «حجة» وهي بلدة غنية بمياهها وزرعها. وترتفع مساكنها فوق سفوح الهضاب اللطيفة التي اكتست كلها بالمزروعات. ولكن ترى أي شيء لا تنبته بساتين «حجة» الواسعة؟

إنها تنبت الفواكه على اختلاف أنواعها والخضر والأعشاب ذات الرائحة العطرية والأزهار من كل نوع ومن كل لون. وفي فصول الأزهار التي تستمر هنا وقتًا أطول من أي مكان آخر تزين أشجار اللوز والخوخ والبرتقال والنارنج والمشمش مناظر الريف بألوان حلوة فاتنة على أن أشهر ما تنتجه «حجة» هو العنب الحلو اللذيذ الطعم الذي لا يمكن أن يضارعه عنب آخر في حلاوته والذي أشار إليه العلامة العربي (ابن سيناء) في كتابه الشهير في الطب. ويوجد في حجة من هذا العنب عشرون صنفًا مختلفة الطعم والشكل واللون تنضج في عدة فترات من السنة حتى لتكاد لا تختفي عناقيد هذا العنب الجميلة من الموائد اليمنية في أي فصل من

---

(١) هو الإمام الناصر لدين الله عبد الله بن الحسن وذلك في سنة ١٢٥٤هـ.

فصول السنة. وإلى هنا يأتي يهود صنعاء ليأخذوا مئونتهم من النبيذ الذي هو مشروبهم التقليدي في احتفالاتهم الرسمية التي يقيمونها في أيام السبت ذلك النبيذ الذي غالبًا ما يعطره هؤلاء التعساء بما الورد!

والقصر الملكي في «حجة» قصر واسع الجنبات فسيح الأرجاء مريح للغاية فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ومع ذلك فإنه يغلب على الظن أنه لن يكون له بعد حين شرف استقبال (المتوكل على الله) وقد يحدث أيضًا للقصور اليمنية ما يحدث لنساء اليمن عندما يفقدن عطف مولاهن ويجدن أنفسهن قد استبدلن بمحظيات جديدات فقد أمر جلالة الإمام يحيى بتشييد قصر آخر ليستريح فيه في (الروضة) على بعد عشرين كيلو مترًا إلى شمال صنعاء على إحدى الطرق التي تسلكها القوافل المسافرة إلى مكة.

وليست الروضة قرية من القرى بل هي مدينة كبيرة بها مسجد عظيم لا يقل جمالًا وفخامة عن أجمل مساجد صنعاء وبها جبانة كبيرة تشغل بقبورها ساحة من أكبر الساحات يستطيع الإنسان في طرقاتها الفسيحة التي تحف بها الحدائق والمتنزهات من كلا الجانبين أن يتنزه أجمل النزه وألطفها وأن يسير فيها الساعات الطوال دون أن يشعر بالملل أو التعب نظرًا لجمال مناظرها وحسن تنسيقها فهي أشبه ما تكون (بالشانزلزيه) في باريس أو (الأونتردن لندن) في برلين. على أن هذه المدينة الجميلة قد تهدم جانب كبير من مساكنها بفعل القنابل التي أطلقتها الأتراك عليها أثناء المعارك التي دارت رحاها في اليمن بينهم وبين الثوار اليمنيين.

ومما يسترعي النظر حقًّا أن يمضي كل هذا الوقت دون أن يفكر إنسان في ضرورة إعادة هذه الأبنية المتهدمة سيرتها الأولى أو في إخلاء هذه المجازر البشرية مما يكون قد وقع تحتها من الجثث وأشلاء الموتى ولكن (الروضة) التي تزدهر بمزروعاتها

وبحركتها التجارية الواسعة في منتجاتها تزداد اتساعًا كل يوم بما يشيد فيها من المباني والمنشآت ويمكنها أن تفخر وتتيه على غيرها من مدائن اليمن بتلك الجوهرة المعمارية الفريدة التي هي قصر الملك الصيفي الجديد.

وسواء أصح أو لم يصح ما قيل من أن الإمام يحيى قد قرر أن يسمح لنفسه بقسط أوسع من الراحة وأن يقضي معظم أوقات السنة في هذا القصر المنيف فإن العناية العظيمة التي كان يباشر بها الأعمال النهائية في هذا القصر من شأنها أن تبعث على الظن بأن (قصر الروضة) سوف يكون له شأن عظيم وأنه قد أعد لغرض أسمى وواجب أجل بكثير من الواجب الذي خصص له إلى اليوم كمقر صيفي للمليك.

ويقوم هذا القصر الفخم العظيم البالغ الزخرف والمتناهي التنسيق فوق إحدى الربي الخضراء بين البساتين النضرة والحقول اليانعة التي خصصت فيها ساحتان هائلتان لزراعة الكروم والقات والفواكه والأزهار ويحتوي هذا القصر على عدد كبير من الأبهاء الجميلة والإيوانات الفسيحة نسقت كلها أحسن تنسيق وعلى شرفات متعددة وهو شامخ البنيان عظيم الارتفاع لدرجة أنه لكي يصل الإنسان إلى أعلاه يجب عليه أن يصعد ما يزيد على المائة سلم فإذا ما صعدها وبلغ قمته فإنه يرى —ويا للعجب— مشهدًا من أجمل المشاهد وأبرعها وأروعها.

ويشتغل العمال في الوقت الحاضر ومعظمهم من اليهود بهمة لا تعرف الكلل لإنهائه والفراغ من زخرفته في أسرع وقت ممكن. وقد حفروا في أعلى واجهته بعض آيات من «القرآن» كتبت بخط عربي جميل- كما زينوا نوافذه وشرفاته بزخارف ونقوش بديعة من الجص والرخام الملون الجميل.

والعجيب في قصر الروضة الفلكي والشيء الذي يدعو إلى الدهشة إنما هو

(المصعد) الذي وضع فيه. ويمكن القول بأنه يوجد الآن مصعد في اليمن. والعمال الإيطاليون المقيمون في اليمن هم الذين جلبوا هذه الآلة الحديثة الصاخبة وشيدوا لها (كابينة) جميلة أنيقة تليق بقصر ملكي مثل (قصر الروضة) وأعدوا لها كل لوازمها حتى لم يبق إلا المحرك (الموتور) لكي تقوم بوظيفتها ولكن عندما عرف الإمام يحيى ثمن هذا المحرك وما يتكلفه نقله إلى القصر من المتاعب والنفقات لم يشأ أن يسمع كلمة واحدة عنه وقال.

ولكن لم هذا المحرك، وما فائدته، وهل ليس عنه من بد؟ ربما ظن الناس أن البلاد اليمنية تنقصها السواعد القوية!!

وهكذا أصبح مصعد القصر الملكي في الروضة يرتفع وينخفض ويعلو ويهبط بواسطة عجلة كبيرة يديرها عساكر الحرس بسواعدهم. وهم بحمد الله كثيرون!

١٤

نبأ من سبأ!!

في شرق صنعاء وعلى مسافة خمسة أيام منها على ظهور الإبل تمتد إحدى المناطق ذات الأهمية التاريخية والأثرية العظيمة. وتكاد هذه المنطقة تكون مطمورة تحت الأتربة الراسبة وفيها أطلال «سبأ» تلك المدينة العجيبة التي كانت تسكنها الملكة بلقيس التي كانت زوجة (سيدنا سليمان) عليه السلام.

ونحن مدينون بذلك القليل الذي نعرفه عن مدينة «سبأ» التي يقال لها أيضًا «مأرب» لثلاثة من العلماء الباحثين الذين استطاعوا التوغل في قلب بلاد العرب والوصول إلى هذه المنطقة وجمعوا من أطلالها بعض كتابات منقوشة على الحجارة. وهؤلاء الثلاثة هم «آرنو» الذي ذهب إليها في عام ١٨٤٣م «وهالفي» الذي كان بها في عام ١٨٦٩ ثم «جليزر» الذي وصل إلى هذه الإطلال في عام ١٨٨٠ ولم يستطع أوربي واحد بعد هؤلاء الثلاثة أن يجوس خلال هذه الديار. ولا تزال «سبأ» إلى يومنا هذا تحتفظ بسرها الكمين العجيب كاملًا غير منقوص.

وقد شيد أهل «سبأ» في واد كبير غرب مدينتهم سدًّا عظيمًا كان يكبح جماح مياه السيول والأنهار وكانوا يروون من هذه المياه أراضيهم التي صارت عظيمة الخصوبة وكانوا مشهورين بالاتجار في العطور التي كانت تنتجها بلادهم والبلاد الحبشية التي كانوا يذهبون إليها في قوارب مصنوعة من الجلود وكانت لهم معابد وهياكل فاخرة وقصور بديعة شاهقة متينة البنيان قد ازدانت جدرانها وأبوابها وأسقفها بالعاج والمعادن النفيسة والأحجار الكريمة وكانوا يملكون رياشًا وأمتعة

وأثاثات من ذهب وفضة.

ولكن أهل «سبأ» كانوا كفرة مشركين يعبدون الشمس والقمر والثور والغزال من دون الله ولذلك عاقبتهم الله على كفرهم بهدم سد مدينتهم الذي أغرقها وشتت شمل سكانها.

وتحطيم سد (سبأ) حادث تاريخي ورد ذكره في «القرآن» وامتلأت به كل الأساطير القديمة التي بقيت في بلاد العرب عن مملكة «سبأ». وليست لدى اليمنيين أية فكرة في الوقت الحاضر عن إلقاء ضوء على تلك الأطلال اليمنية الباقية من هذه المدينة الشهيرة أو إماطة اللثام عن تاريخها... (وهل يسمح مسلم صالح لنفسه أن يكشف ما أمر الله به أن يدفن؟).

ولا يوجد من بينهم من يرغب في تفسيره هذه الكتابات والنقوش وحل رموزها لمعرفة حقيقة الماضي وكشف أسراره... أليست الأساطير أجمل من التاريخ؟

ولكن القليلين منهم الذين جرءوا على الحفر في هذه المنطقة واستخراج بعض التماثيل هم من البدو الذين يبيعون هذه الأشياء للأجانب وهم مندهشون لتقدير هؤلاء لبضاعتهم كل هذا التقدير!

ولقد استطاع علماء الآثار الذين وصلوا إلى «سبأ» بعد أن تعرضوا لأشد المخاطر - أن يجمعوا الشيء القليل وتمكن العالم (جليزر) من إقناع أحد أشراف مدينة (مأرب) بأنه مسلم واتخذ منه دليلًا ومرشدًا وسافر الاثنان من صنعاء إلى ذلك الوادي الذي يجري بين حبلي نحم وخولان ووصلا بعد أربعة أيام إلى وادي (شبوان) ثم استأنفا سيرهما في أحد الطرق الوعرة التي لا يمكن السير فيها إلا على ظهور البغال والذي يخترق المقابر القديمة ووصلا بعد ثلاث ساعات إلى مكان

(المدينة السبئية) القديم.

ولكن حدث في هذه الأثناء أن ذاع خبر سفن ذلك (الكافر) إلى سبأ ولذلك قرر البدو قتله هو ومرشده ولما علم (جليزر) بعزمهم هذا اضطر للاختفاء في النهار والتنقل في ظلام الليل وقد استطاع في أثناء عودته بجهد أن يرد اعتداء البدو المسلحين الذين كانوا متربصين له ورغمًا من كل هذه الصعوبات وحرمانه من أية آله من الآلات الفنية استطاع العالم النمسوي أن ينسخ ثمانمائة وخمسين مخطوطًا من المخطوطات النفيسة الأمر الذي يدلنا على مقدار الثروة الأثرية العظيمة في هذه المنطقة.

ولم يسمح الإمام يحيى قط لأي أجنبي بالسفر إلى مدينة (سبأ) وقد أصدر أمره من عدة سنوات بعدم بيع العاديات منعًا باتًا. وقد حاول أحد العلماء من عهد بعيد السفر إلى (مأرب) من حضر موت ولكنه قبض عليه وأبعد إلى خارج حدود البلاد كما صودرت عدة صناديق ملأى بقطع أثرية وتماثيل كان قد اشتراها عالم آخر من بعض البدو المقيمين في المناطق القريبة من هذه الأطلال القديمة.

وإذا ما سأل سائل عن سر هذه الشدة تنتحل له شتى الأسباب ويعتذر له بمختلف المعاذير فقد قال لي أحد العلماء المتقدمين في السن أنه تسكن في منطقة سبأ قبائل من البدو المتوحشين الذين يأكلون اللحوم النيئة وأشراف هذه القبائل ورؤساؤها يضطهدون القرويين المساكين ويلزمونهم بالعمل في حقولهم وبالقتال من أجلهم. وكثيرًا ما يرسل الإمام يحيى إليهم حملات عسكرية لجباية العشور منهم ولذلك يرى من الحزم عدم التصريح للأجانب بالمغامرة بدخول تلك الأقاليم التي يسكنها قوم لا يعترفون بحكومة صنعاء اعترافًا جديًا ولا يدينون لها بالإخلاص وقد قال لي عالم آخر إن الإمام يحيى لا يرى أية قيمة لهذه الأحجار القديمة ولكنه لما

يرى اهتمامكم العظيم بها أنتم معاشر الأوربيين فإنه يجد من الحكمة عدم تركها لكم.

وعند مقابلتي للإمام وجدته منشرح الصدر ولذلك انتهزت هذه الفرصة وطلبت إليه أن يسمح لي بالسفر إلى «سبأ» وقد أجابني إجابة ملتوية قائلًا: «إن وجودك هنا إلى جانبي يسبب لي سرورًا عظيمًا اشكر الله عليه فابق في صنعاء ما شئت واستمر في زيارة الضواحي والقرى الجميلة التي لنا فيها قصور جميلة تنزل فيها على الرحب والسعة كما بدا لك».

ولكن هل تدعني أذهب إلى «سبأ؟».

إن السفر إلى «سبأ» لمن أصعب الأمور وأشقها. فضلًا عن أنه سيحرمني من رؤيتك عدة أيام ولا يوجد هناك طريق تستطيع أن تسلكه... فهل من الممكن أن أدعك تسافر إلى مكان لا توجد فيه طرق سهلة مأمونة؟... إنني أنا أيضًا شديد الرغبة في زيارة مدينة «سبأ» التي لا يزال يوجد فيها إلى اليوم جزء من ذلك السد العظيم العجيب الصنع وربما تعجب إذا علمت أنه قد بني بالحجارة المربعة وأن هذه الحجارة من ثلاثة ألوان ففيها الأخضر والوردي والرمادي وأنه يوجد على مقربة منه عمود قائم نقشت على جوانبه قواعد توزيع المياه التي كانت تروي الحقول التي كانت مصدرًا لمعظم ثروة أهل سبأ الأمر الذي يدلك على أن ملكهم كان يقوم على أحسن نظام.

وعند ذلك سألته قائلًا:

وماذا فعل الله بالمدينة؟

«عندما تحطم السور اجتاحت المياه المدينة التي أصبحت تغطيها الأتربة والطمي.

ولقد كانت هذه المدينة كبيرة عظيمة الاتساع شامخة البنيان امتلأت مساحة كبيرة منها بالأعمدة والأحجار المزخرفة. وأما ما يستلفت النظر فيها أكثر من أي شيء آخر فهو عرش المَلكة «بلقيس» وهو ذلك المعبد الكبير الذي أصدر «سليمان» عليه السلام أمره إلى الجن بتشييده لملكة سبأ. ولقد صحت عزيمتي على إصلاح الطريق بين صنعاء ومأرب وتمهيده بحيث تستطيع السيارات أن تسلكه وآمل أن يتم هذا العمل في مدى سنتين. وعندئذ سوف أذهب إلى سبأ وسوف أدعوك بمشيئة الله لمرافقتي إذا أردت!.

***

ومن الممكن أن يرى الإنسان في متحف «ترمي» بإيطاليا بعض آثار بلاد العرب الجنوبية وهي نقوش وشظايا وقطع هندسية صغيرة وتماثيل غليظة من الحجر عني بجمعها الدكتور أنسالدي أثناء إقامته في مدينة «صنعاء» واستطاع نقلها بعد ذلك إلى إيطاليا بموافقة جلالة الإمام. على أن هناك مجموعة أثمن وأكمل من هذه المجموعة أودعها في مدينة (عدن) شخص اسمه (بارسي) كان يشتغل مدى خمسة وعشرين عامًا في اليمن بجمع العساكر المرتزقة والعمال للدول المستعمرة. وقد أودعت هذه المجموعة في حانوت يفتح بابه على أحد الطرق الرئيسية. وترى في واجهته عينات لمنسوجات يابانية وأسلحة قديمة دمشقية وقطع كبيرة من العاج وتماثيل صغيرة من المرمر. وفي داخل هذا الحانوت يوجد المتحف الذي لا يفتح إلا للزائرين من ذوي المقام والذي يخلب منظره الألباب ويبهر العيون فقد ضم مجموعة من تماثيل من الرخام الأبيض والمرمر وحجر الجير للملوك (أوزان) كما احتوى على قطع فنية وتيجان أعمدة وقلائد وأساور وخواتم من ذهب وفضة ولافتات من البرنز وأحجار جامدة وجعارين. وقد صفت على أرفف الحانوت وكوابيلها البيضاء بترتيب أحجامها وحسب ارتفاع كل منها تماثيل غليظة من الحجارة للملوك الذين

حكموا اليمن من خمسة وعشرين قرنًا من الزمان وقد استحضر الجانب الأكبر من هذه الأشياء من (أوزان) أو من (حضر موت) على أن فيها أيضًا بعض آثار (سبأ) ومنها أيضًا تمثال صغير لامرأة جميلة يؤكد صاحب الحانوت بأنه تمثال ملكة (سبأ) التي قامت بتلك الزيارة التاريخية للملك سليمان.

وآثار سبأ قليلة بل ونادرة حتى في متحف صنعاء الذي أنشأه جلالة الإمام يحيى من أربعة أو خمسة أعوام في دار (الصنايع) الذي هو قصر الضيوف والذي تنزل فيه البعثات الأجنبية التي تزور اليمن. وقد اعتاد الإمام من بضع سنوات أن ينقل إلى إحدى غرف قصر الصنايع الآثار التي تئول ملكيتها إليه بأي وجه من الوجوه. وقد تكدس معظم هذه الأشياء الدقيقة – لعدم وجود أرفف أو كوابيل في الغرفة – في صناديق البضائع المستعملة لصفائح الغاز. وعندما يأتي أحد الزوار لمشاهدة المتحف يقوم الحارس بفتح الصناديق وإخراج الآثار منها وصفها على قواعد النوافذ لكي يستطيع الزائر رؤيتها والتمعن فيها وكثيرًا ما يحدث في أثناء هذه العملية أن يقع أحد التماثيل على بلاط الغرفة ويصبح هشيمًا وعندئذ يدفع الحارس بقدميه المكسور والشظ المتخلفة عنه إلى ركن من أركان الحجرة دون أن يبدو على وجهه أي أثر للأسف أو الاضطراب ولا يعلم إلا الله وحده قيمة هذه التحف الحجرية التي جمعت من أطلال مدن بلاد العرب الجنوبية القديمة. وتبدو القطع الهندسية والآثار النذرية أو الجنائزية والرسوم البارزة ذات أهمية عظمى للأجنبي أما التماثيل الصغيرة العديدة المصنوعة من الرخام أو المرمر والتي تمثل رجالًا ونساء في أوضاع متشابهة إذ تمثلهم جالسين وكوع كل واحد منهم ملتصق بخصره ويداه ممدودتان إلى الأمام فإنها تدل على فن أولي على أنه توجد في متحف صنعاء أشياء عظيمة القيمة عثر عليها بفضل أعمال الحفر التي أجريت في منطقتي غيمان ونخلة بأمر وتحت إشراف سمو الأمير سيف الإسلام أحمد. ولعمري إن التمثال البرنزي الكبير الذي عثر عليه

في جهة «نخلة» إنما هو آية من آيات الفن فهو يمثل أحد الأبطال الأقدمين عاري الجسد له أعضاء متناسبة تمام التناسب ومما يؤسف له أشد الأسف أن العمال القليلي الخبرة قد هشموه في أثناء عملية الحفر وليس في اليمن كله من يستطيع القيام بإصلاح هذه الأشياء النفيسة التي لا تقدر بمال. وقد جمع هذا التمثال وأوقف على قدميه ودعم بدعائم معدنية بعد أن جمعت كل أجزائه إلى بعضها وربطت بأسلاك حديدية.

ولما كان ساعد التمثال الأيسر مفقودًا ولم يكن الحارس للآن رأيًا حاسمًا عن الوضع الذي أراد المثال أن يعطيه لبطله فإنك تجد الذراع في بعض الأحيان مرفوعًا إلى أعلى الرأس وأحيانًا أخرى ممدودًا إلى جانبه.

***

ولقد طلبت إلى إسحاق بن موسى أن يصحبني إلى بيوت «حي اليهود» التي تصنع فيها العاديات الزائفة لكي تباع فيما بعد باسم عاديات سبئية حقيقية فوضع الرجال يده على قلبه ورفع عينيه إلى السماء وصاح قائلًا:

«إنك يا سيدي تطلب مني أن أريك شيئًا إذا صح كان أعظم فضيحة لنا. ولكني أعرف بدويًا من بدو مدينة مأرب يقتني دائمًا أشياء قديمة يبيعها للأجانب سرًا وبدون علم الإمام».

وفعلًا ذهبنا سويًا للبحث عن بدوي (مأرب) في كل مكان. ترى ماذا فعل الله به، وفي أي مكان اختفى فقد مضت أيام وأيام ولا يعرف أحد عن أخباره شيئًا. ولما يئسنا من العثور عليه ولم نعد نفكر فيه ولا في عادياته ها نحن أولاء نقابله في أحد الطرقات الصغيرة الموصلة إلى المسجد الكبير قبل صلاة العشاء.

السلام عليكم!

وعليكم السلام!

وبعد التحيات المعتادة قبل البدء في الحديث والسؤال عن الصحة وعن المحصول إلى غير ذلك ندخل في الموضوع...

لقد كنا نبحث عنك يا صالح من عدة أيام لأن هذا الأجنبي يريد مشاهدة عادياتك فعليك بالذهاب إليه صبيحة الغد في داره لكي تعرض عليه ما عندك منها.

فأجابه البدوي قائلًا:

ليس في استطاعتي الذهاب في الصباح إلى دار صديقك المحترم لأنني مسجون... ولكن حارسي يفك قيودي بعد الغروب في نظير (بقشيش) أقدمه له لكي يدعني حرًّا طليقًا عدة ساعات من الليل. فإذا أراد صديقك استقبالي في داره فإني على تمام الاستعداد للذهاب إليه في المساء لأن لدي بعض التماثيل البرنزية الجميلة التي سوف تسره كل السرور.

وفي هذه اللحظة يقف عربي آخر لاستماع أحاديثنا -كما يحدث دائمًا- (وهل في ذلك غرابة؟) ولكن البدوي سرعان ما يقف عن الكلام ولما يرى أن ذلك الرجل الواقف لا يريد أن يتزحزح من مكانه يقول لي.

سنعود إلى الحديث عندما ينصرف هذا الرجل!

وعند ذلك ينظر العربي إليه نظرة كره واشمئزاز ويأخذ في السير في طريقه وهو يقول:

إنك لا بد وأن تكون لصًّا ما دمت لا تجرؤ على الكلام أمام الناس!

ولم يكن لدى صالح ما يرد به على هذا الكلام بل أخذ يحدثني عن الأشياء الثمينة التي سوف يبيعها لي في الغد والتي لا شك في أنها صنعت كلها في «حي اليهود» بمنزل إسحاق بن موسى!



١٥
خاتمة

...ودعت بلاد اليمن الخضراء الوداع الأخير في يوم من أيام الشتاء كان حره شواظًا من نار. وكانت ريح الجنوب الشرقي الساخنة تداعب «السنابيك» وتجعلها ترقص رقصًا متواصلًا على صفحة الماء المتجمدة في ميناء الحديدة الصغيرة.

وكانت في انتظاري في عرض البحر خارج الميناء إحدى البواخر الصغيرة الممقوتة التي تقوم برحلاتها عبر البحر الأحمر دون أن تحترم أي احترام أو تعمل أي حساب لمواقيت القيام أو مواعيد الوصول والتي يسافر الإنسان على ظهرها دون أن يعرف على وجه التحديد في أي مكان ولا في أية ساعة تقف وتلقي مراسيها.

وإذا كان الإنسان لا يعيش في اليمن المعيشة التي تحلو له ولا يحظى فيها بكل ما يشتهي فإن أصعب من ذلك وأشق على النفس الوصول إليها أو الارتحال عنها ومع ذلك فإني لا أذكر بأني سافرت في رحلة كانت أحب إلى نفسي من رحلتي إلى اليمن أو أحسن منها.

وعندما تشرفت للمرة الأخيرة بمقابلة جلالة الإمام يحيى لالتماس الإذن منه في السفر والعودة إلى أرض الوطن تلطف -حفظه الله- معي كثيرًا بأن وجه إلي كلمات كريمة تدل على شعور رقيق ونفس نبيلة وودعني وداعًا مؤثرًا وأظهر نحوي عطفًا لن أنساه ما حييت. وأن أنس لا أنسى جلالته ساعة أن وقف يبتهل إلى الله أن يشملني برعايته وتوفيقه وأن يكتب لي السلامة.

وقد سلمني جلالته «جواز سفر» ممهورًا بخاتمه العظيم مكتوبًا على ورقة نثر عليها ذلك المسحوق الأحمر الذي اعتاد أن ينثره على كل ما يكتب.

وقد نقش على هذا الخاتم اسم جلالته وألقابه «يحيى بن محمد حميد الدين أمير المؤمنين المتوكل على الله»، كما كتب عليه نص جواز المرور الذي يبتدئ: بسم الله الرحمن الرحيم وهو: «لا بأس من سفر فلان (وهنا يذكر اسم المسافر ولقبه وجنسيته) فلا يعترض عليه».

وفي الحق أن الاعتراضات على سفري لم تكن منتظرة ولم يكن لها أي أثر بفعل هذا الطلسم العجيب فإن هذه الورقة التي وقع عليها جلالته بالخاتم الأحمر كان لها فعل كفعل السحر إذ كانت تخلي أمامي جميع الطرقات وتفتح في وجهي كل الأبواب في أسرع وقت وفي لمح البصر.

***

وداعًا أيها اليمن الجميل!
وداعًا أيها الشعب الوادع اللطيف!
وداعًا أيها العساكر الظرفاء!

إني لا استطيع إلا أن أقول لكم إن السفر ومبارحة بلادكم الجميلة المحبوبة بلاد السحر والأحلام تسبب للإنسان الأسف والحسرة وتجعله يشعر بيقظة مزعجة مكدرة؛ لأن من يسعده الحظ بزيارة بلادكم والإقامة في مدنكم الجميلة الفاتنة المنقطعة النظير ليخيل إليه أنه كان مستغرقًا في حلم عجيب لذيذ يود لو لم يستيقظ منه وأن يبقى مستغرقًا فيه إلى ما شاء الله!!

(انتهى)

فهرس